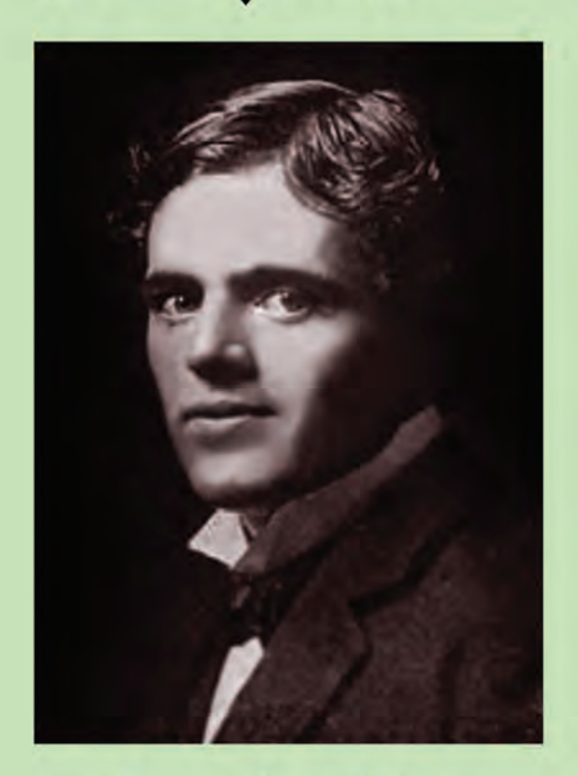




مجاناً مع السفير

نداء البداوة



جاك لندن



الكتاب للجميع

١٤٩

جاك لندن

نداء البداوة

ترجمة سليم عبد الأمير حمدان

طبعة خاصة
توزّع مجاناً مع جريدة (السفير)

دار المدى للثقافة والنشر

٢٠١٤



مجاناً مع جريدة السفير

تصدر عن شركة السفير ش.م.ل.

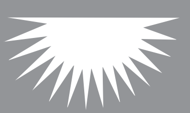


رئيس تحريرها : طلال سلمان

المدير العام: ياسر نعمة

المدير المسؤول: غاصب المختار

الكتاب للجميع



التحرير والإدارة: شارع منيمنة / الحمراء/ بيروت

فاكس ٣٥٠٠٠٥ - ٧٤٣٦٠٢

ص.ب: ٥٠١٥/١١٣/الحمرا - بيروت ١١٠٣٢٠١٠

انترنت http: //www.assafir.com

Coordinator@assafir.com

- تمّت الطباعة في مطابع جريدة السفير

- تلفاكس ١/٢/٣/٤ - ٧٤٢٦-٩٦١+

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر



رئيس مجلس الإدارة والتحرير

فخري كريم

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور
الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ - ٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون:
٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366.
Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289
بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com



"اشتياقات قديمة، قفزة بداوة،
اضطراب على سلسلة العادة،
ومرّة أخرى من نومته الشتائية
يستيقظ السلف الوحش".

إلى البدائي

لم يكن (بك) يقرأ الصحف، وإلا لكان عرف أن المشكلة كانت تختمر، لا بالنسبة له وحده، وإنما لكلّ كلب في شرقي فرجينيا، قوي العضلات، ذي شعرٍ دافئ طويل، من (يوجيه ساوند) وحتى (سانِ دييغو). فلأن رجالاً – يبحثون في الظلمة القطبية – قد وجدوا معدناً أصفر، ولأنّ السفن البخارية وشركات النقل كانت توسّع الاكتشاف، فإنّ آلاف الرجال كانوا يندفعون نحو أرض الشمال. كان أولئك الرجال يريدون كلاباً، والكلاب التي يريدونها ينبغي أن تكون ثقيلة، ذات عضلات قويّة تمكِّنها من الكدح، كما كانوا يحتاجون إلى سترات الفراء لتحميهم من الصقيع.

كان (بك) يحيا في بيت كبير في (سانتا كلارا فالي)، الذي تقبله الشمس. كان يدعى بيت القاضي ميلر. كان خلف الطريق، نصف مخفي بين الأشجار، التي كان يمكن أن تلمح من بينها الفيرانده الفسيحة الباردة التي تلتف حول جوانب البيت الأربعة. كان الوصول إلى البيت يتم عن طريق دروب عربات مكسوة بالحصى، تلتف عبر مروج متسعة تحت الأغصان المتشابكة لأشجار شربين طويلة. وفي المؤخرة كانت الأشياء على قياس أكثر اتساعاً منها في المقدمة. كانت ثمة اسطبلات عظيمة، تنطوي على دزينة من السياس والصبيان. وصفوف من أكواخ الفلاحين المدثرة بأغصان الكروم. وتشكيلة منتظمة لا تنتهي من الدفيئات. وخمائل العنب الطويلة. والمراعي الخضراء والبساتين والفسحات المزروعة بالتوت، ثم كانت ثمة معدات الفتح للبئر الارتوازية، والخزان الاسمنتي الكبير حيث كان صبيان القاضي ميلر يأخذون حماماتهم الصباحية ويتبرّدون في العصاري الحارة.

على هذه الممتلكات العظيمة كان (بك) يحكم. هنا ولد، وهنا عاش سني عمره الأربع. صحيح أنه كان ثمة كلاب أخرى، لم يكن ممكناً إلا أن تكون ثمة كلاب أخرى في مكان على تلك السعة، ولكنها كانت غير ذات شأن. كانت تأتي وتذهب، تقيم في بيوتها الحاشدة أو تعيش منسية في تجاويف المنزل على طريقة (توتس)، اليابانية الصغيرة قصيرة الشعر ذات الوجه المغضن والذيل المعقوف، أو (ايزابيل)، عديمة الشعر المكسيكية – وهما مخلوقتان غريبتان نادراً ما كانتا تدسان أنفيهما خارج الأبواب أو تمدان قدماً إلى الدرب. ومن جانب آخر، كانت ثمة كلاب صيد الثعالب: عشرون منها على الأقل، والتي كانت تصرخ وعوداً خانقة لتوتس وايزابيل وهما تطلان عبر النوافذ عليهما، تحميهما فصيلة من خوادم البيت المسلحات بالمكانس والمماسح.

ولكن (بك) لم يكن كلب بيت ولا كلب وجاق. كان كل الاقليم ملكه. كان يخوض في خزان السباحة أو يمضي للصيد مع أولاد القاضي. كان يرافق (مولي) و (أليس)، ابنتي القاضي، في سياحات طويلة أوقات الغسق أو عند الصباحات المبكرة، وفي ليالي الشتاء كان يتمدد عند قدمي القاضي أمام نار الموقد المدوية، وكان يحمل أحفاد القاضي على ظهره، أو يدحرجهم على العشب، ويحرس خطاهم عبر المغامرات الوحشية إلى أسفل، حتى النافورة الكائنة في ساحة الاسطبل، وحتى أبعد من ذلك، حيث كانت تقع ساحات تدريب الخيل والفسحات المزروعة بالتوت. وبين كلاب صيد الثعالب كان يمشي مصعراً بجلال، وتوتس وايزابل كان يتجاهلهما كلية، لأنه كان ملكاً، ملكاً على كل الأشياء الزاحفة والماشية والطائرة في بيت القاضي ميلر، بما فيها البشر.

كان أبوه، (المو)، وهو كلب ضخم من فصيلة السان برنار، رفيق القاضي الذي لا ينفصل عنه، وقد بدا محتملاً أن يقتفي (بك) خطأ أبيه. لم يكن ضخماً إلى ذلك الحد – فلم يكن وزنه ليزيد عن مائة وأربعين رطلاً – لأن أمه، (شيب)، كانت من كلاب الصيد

السكوتلندية. ومع ذلك، فإن مائة وأربعين رطلاً – مضافاً إليها المقام الناتج عن الحياة الطيبة والاحترام الشامل – كانت تمكنه من التبختر في طراز ملكي صحيح. طيلة السنوات الأربع منذ جِراوته كان قد عاشٍ حياة ارستقراطي مكتف، كان يحس فخراً بديعاً بنفسه، وكان دائماً زائد الاهتمام بذاته، كما يصير سادة الريف، أحياناً، بسبب مراكزهم المنعزلة. ولكنه كان قد أنقذ نفسه بأنه لم يصر مجرد كلب منزلي رخي. إن الصيد، ومباهج خارج البيت المشابهة، قد أبقته قليل الشحم وصلبت عضلاته. وبالنسبة له – كما بالنسبة للأجناس المستحمة في البرودة – كان حب الماء قد صار مقوياً وعامل حفاظ على الصحة.

تلك كانت حال الكلب التي كان (بكٍ) عليها في خريف ١٨٩٧، عندما جذبت ضربة (الكلونڤايك) رجالاً من كل العالم إلى الشمال المتجمد. ولكن (بك) لم يكن يقرأ الجرائد، ولم يعرف أن (مانويل)، أحد مساعدي البستاني، كان من المعارف غير المرغوب فيهم. كانت لمانويل خطيئة لصيقة واحدة: كان يحب أن يلعب اليانصيب الصيني. وكذلك كانت له في مغامراته نقطة ضعف محيرة واحدة – الإيمانٍ بمنظومة كاملة من اليانصيب، وكانٍ ذلك يجعل خرابه التام أكيداً. لأن لعب منظومة كاملة يتطلب مالاً، في حين أن أجور مساعد بستاني لا تزيد عن متطلبات زوجة وذرية متعددة.

كان القاضي في اجتماع لجمعية منتجي الزبيب، وكان الأولاد مشغولين في تنظيم ناد رياضي، في تلك الليلة التي لا تنسى لخيانة مانويل. لم يره أحد وهو يبتعد مع (بك) عبر البستان في ما تصوره (بك) مجرد نزهة على الأقدام. وباستثناء رجل منفرد، لم يرهما أحد وهما يصلان محطة القطار الصغيرة المعروفة باسم (كولج بارك). وقد تحدث هذا الرجل مع مانويل، وخشخش المال بينهما.

– "يمكنك أن تلف البضاعة قبل أن تسلمها"، قال الغريب بفظاظة، فعقص مانويل قطعة حبل متين حول عنق (بك) تحت الطوق. قال مانويل:

– "شده، وستخنقه كثيراً"، فقرقر الغريب تأكيداً جاهزاً.

تقبل (بك) الحبل بوقار هادئ: من المؤكد أن ذلك كان عملاً غير مألوف، ولكنه كان قد تعلم أن يثق بالرجال الذين يعرفهم، وأن يسلّم لهم بالأرجحية لحكمة تتجاوز حكمته الخاصة. ولكن، عندما وضع طرف الحبل في يدي الغريب، نبح بتهديد، لقد أعلن فقط سخطه، مؤمناً – بفخر – أن الإعلان يعني الأمر. ولكن الحبل، لدهشته، اشتد حول رقبته، كاتماً نفسه. وفي غضب سريع قفز على الرجل، الذي تقدم لملاقاته، فأمسك به وثيقاً من الحنجرة، وبلفتة بارعة رماه، طارحاً إياه على ظهره. ثم اشتد الحبل دون رحمة، في حين ناضل (بك) بسعار، ولسانه يتدلّى خارج فمه، وراح صدره العظيم يلهث بعجز. لم يسبق له في حياته كلها أن عومل بتلك الطريقة المهينة، كما لم يسبق له طوال حياته أن صار على ذلك الحد من الغضب. ولكن قوّته تلاشت، وغشيت عيناه، ولم يعرف شيئاً عندما تم إيقاف القطار ورماه الرجلان في عربة الحمل.

كان ثاني ما عرفه أنه قد أدرك بشكل غامض أن لسانه كان يؤلمه وأنه كان يجري نقله – مخضوضاً – في نوع من أنواع الناقلات، وقد أخبره الزعيق الأجش، لقاطرة تصفر أثناء عبورها. بموقعه. كان قد سافر غالباً مع القاضي، بحيث كان يسيراً له أن يعرف الاحساس بركوب عربة حمل. فتح عينيه، وإليهما جاء الغضب الطليق السافر لملك مختطف. قفز الرجل لحماية حنجرته. ولكن (بك) كان سريعاً جداً بالنسبة له. انطبق فكّاه على اليد، ولم يرتخيا حتى غابت عنه حواسه مرة أخرى.

– "اي، له نوبات"، قال الرجل، وهو يخفي يده المشوهة عن مسؤول الحمل، الذي اجتذبته أصوات الصراع. "إنني آخذه إلى الرئيس في فرسكو[1]. ثمة طبيب كلاب من الدرجة الأولى هناك يظن أن بمقدوره أن يشفيه».

---

(١) يعني: سان فرانسسكو – المترجم.

وفيما يتعلق بسفر تلك الليلة، تحدث الرجل بأكثر ما يكون طلاقة عن نفسه، في ظليلة صغيرة خلف صالون على برسان فرانسسكو، تذمر:

– «كل ما أحصل عليه، عنه، هو خمسون. وإنني ما كنت لأفعل لقاء ألف: نقداً بارداً».

كانت يده ملفوفة بمنديل دام، وكانت الساق اليمنى من بنطلونه مشقوقة من الركبة حتى الكاحل. سأله مسؤول الصالون:

– «كم يحصل الجلف الآخر؟». فكان جوابه:

– «مائة. ما رضي أن يأخذ أقل ولو فلساً واحداً. وهكذا، فليساعدني الله». فحسب مسؤول الصالون:

– «ذلك يصير مائة وخمسين، وأنه ليستحقها، وإلا فأنا غبي».

فك الخاطف اللفافات الدامية ونظر إلى يده الممزقة:

– «إن لم أصب بالعجز عن ابتلاع الماء...»، فضحك مسؤول الصالون:

– «ذلك لأنك ولدت لتشنق»، ثم أضاف: «هيا، ساعدني قبل أن تسحب حملك».

مصاباً بالدوار، معانياً ألماً لا يحتمل من الحنجرة واللسان، والحياة نصف المكتومة عنه، حاول (بك) أن يواجه معذبيه. ولكنه كان يطاح به ويخنق تكراراً، حتى نجحا في قص الطوق البرونزي الثقيل عن عنقه، بالمبرد. ثم خلع الحبل، وألقي به في صندوق مشبك شبيه بالقفص.

هناك تمدّد لما تبقى من تلك الليلة المتعبة، مدارياً غضبه وكرامته الجريحة. لم يكن بمقدوره أن يفهم ما كان ذلك كله يعنيه. ماذا كانا يريدان به، هذان الرجلان الغريبان؟ لماذا يبقيانه محجوزاً في هذا الصندوق الضيق؟ لم يعرف لماذا، ولكنه أحس الاضطهاد من الشعور الغامض بالعداء الوشيك. وبضع مرات أثناء الليل قفز عندما كانت البوابة المضللة تقعقع منفتحة، متوقعاً أن يرى القاضي،

أو الأولاد على الأقل. ولكن في كل مرة كان الوجه المنفوخ لمسؤول الصالون هو الذي يحملق فيه على ضوء مريض لشمعة شحمية. وفي كل مرة كان النباح المرح الذي يرتعش في بلعوم (بك) ينقصف إلى هرير وحشي.

ولكن مسؤول الصالون تركه لوحده، وفي الصباح دخل أربعة رجال ورفعوا الصندوق. استقر رأي (بك) على أنهم مزيد من المعذبين. لأنهم كانوا مخلوقات شريرة النظرات، ذات ثياب رثة وشعورهم شعثاء، فكان يعصف ويغضب عليهم من خلال القضبان، كانوا يكتفون بالضحك ومدى العصي نحوه، تلك العصي التي كان يهاجمها فوراً بأسنانه حتى أدرك أن ذلك كان ما يريدون. وعندئذ تمدّد منطوياً وترك الصندوق يُرفع إلى عربة. ثم بدأ، هو والصندوق الذي سجن فيه، بالتنقّل عبر أيد عديدة. تحمل مسؤوليته كتاب في دائرة القطار السريع. وتم نقله بعربة أخرى. وحملته عجلة شحن مع تشكيلة من العلب والرزم، على عبّارة بخارية، وتمّ قطره من العبّارة إلى مخزن عظيم للسكة الحديد، وأخيراً أودع في عربة نقل سريع.

طيلة يومين وليلتين جرى سحب العربة السريعة تلك وراء قاطرة زاعقة، وطيلة يومين وليلتين لم يأكل (بك) ولم يشرب شيئاً. في غضبه استقبل الخطوات الأولى لسعاة العربة السريعة هاراً، فردوا بأن أخذوا يماحكونه. وعندما طوّح نفسه على القضبان، مرتجفاً ومزبداً، ضحكوا منه وصبوا عليه الإهانات. هروا ونبحوا مثل كلاب مكروهة، وماؤوا، ولوّحوا بأذرعهم ونعقوا. كان يعرف أن ذلك كله كان سخيفاً، ولكنه كان لذلك أكثر استفزازاً لكرامته، فاشتد غضبه واشتد، لم يبال الجوع كثيراً، ولكن افتقاد الماء سبّب له معاناة حادة وتصاعد غضبه إلى درجة الحمى. لذلك السبب، وإذ كان منفلت المشاعر بالغ الحساسية، ألقى به سوء المعاملة في حمى، كان يغذيها التهاب بلعومه ولسانه المتيبسين، المتورمين.

كان يسعده شيء واحد: لقد رفع الحبل عن عنقه. كان ذلك

يعطيهم تفوقاً غير عادل. ولكن الآن وقد رفع. سيريهم. انهم لن يضعوا حبلاً آخر حول عنقه. على ذلك عزم. طيلة يومين وليلتين لم يأكل ولم يشرب قط، وخلال يومي العذاب وليلتيه تلك، جمع ثروة من الغضب كانت تلوح مخيفة لكل من كان يتورط معه أولاً. انغلقت عيناه بفعل تصاعد الدم. وقد انمسخ إلى شيطان غاضب، كان قد تغير بحيث أن القاضي نفسه ما كان ليميزه، وقد تنفس سعاة العربة السريعة الصعداء عندما حشروه خارج القطار في سياتل.

حمل أربعة رجال، باعتناء، الصندوق المشبك من العربة إلى ساحة خلفية صغيرة عالية الجدران. خرج رجل سمين، يلبس بلوزة حمراء كانت متهدلة بارتخاء حول الرقبة، وقع الدفتر للسائق. كان ذلك الرجل، كما خمن (بك)، هو المعذب التالي، فطوى نفسه بوحشية على القضبان. ابتسم الرجل بضراوة وجلب بلطة وهراوة، سأل السائق:

– «إنك لا تنوي أن تخرجه الآن؟».

– «بالتأكيد»، رد الرجل وهو يدفع البلطة إلى الصندوق المشبك متوجساً.

جرى تبعثر فوري للرجال الأربعة الذين سبق أن حملوا الصندوق المشبك إلى الداخل، واستعدوا ليراقبوا العرض من مساند أمينة في أعلى الجدار.

اندفع (بك) نحو الخشب المتباعد، دافناً أسنانه فيه، تاركاً فمصارعاً إياه. كلما كانت البلطة تقع إلى الخارج، كان هو هناك في الداخل: هارا زائراً، متوثباً باندفاع للخروج بقدر ما كان الرجل ذو البلوزة الحمراء هادئاً في نيته على إخراجه. وقال:

– «والآن، أنت يا وحشاً أحمر العينين» بعد أن أحدث فتحة كافية لمرور جسد (بك) وفي نفس الوقت أسقط البلطة ونقل الهراوة إلى يده اليمنى. ولقد كان (بك) حقاً وحشاً أحمر العينين، عندما شد نفسه متجمعاً للقفزة، ملتمع الشعر، مزبد الفم، في عينيه اللتين أعماهما

الدم بريق مجنون.

مستقيماً نحو الرجل قذف مائة وأربعين رطله من الاندفاع، المتأججة بالعاطفة المكبوتة ليومين وليلتين. وفي منتصف الفضاء، بالضبط عندما كان فكاه على وشك الانطباق على الرجل، تلقى صعقة قيّدت جسده وطبقت أسنانه إطباقة مؤلمة، تلوى منطرحاً، جاعلاً الأرض على ظهره وجنبه. لم يسبق له أن ضرب بهراوة في حياته، فلم يفهم. بزئير كان شيئاً من نباح وكثيراً من زعيق عاد للوقوف وانقذف في الهواء. ومرة أخرى جاءت الصعقة فانطرح منسحقاً على الأرض. هذه المرة أدرك أن ذلك كان بفعل الهراوة، ولكن جنونه لم يعرف حذراً. وهجم عشر مرات، وبنفس العدد كسرت الهراوة الهجوم وحطمته حتى طرحته.

وبعد ضربة قاسية بشكل خاص زحف على قدميه، وقد داخ أكثر مما يسمح له بالانطلاق. تعثر بارتخاء، والدم يسيل من أنفه وفمه وأذنيه، وقد ترشش كساءه الجميل وتبقع بلعاب دام. ثم تقدم الرجل وقدّم له طوعاً ضربة مخيفة على الأنف. كان كل الألم الذي تحمّله لا شيء بالمقارنة مع الألم المبرح المتفرد لهذا الألم، وبزئير يشبه زئير الأسد تقريباً في ضراوته، طوّح نفسه مرّة أخرى نحو الرجل، ولكن الرجل، ناقلاً الهراوة من يمين إلى يسار، أصابه ببرود في الفك الأسفل، ملتفاً بنفس الوقت إلى أسفل وإلى وراء. رسم (بك) دائرة كاملة في الهواء، ونصف دائرة أخرى، ثم انسحق إلى الأرض على رأسه وصدره.

لآخر مرة انطلق. فضرب الرجل الضربة القاسية التي أخرها عن قصد طيلة هذا الوقت، فاندهس (بك) وانطرح، ساقطاً معدم الاحساس تماماً.

– «إنه ليس عاجزاً فيما يتعلق بتدجين الكلاب، هذا ما أقول»، صرخ أحد الرجال الجالسين على الجدار، بحماس.

فكان جواب السائق، فيما صعد العربة وحرك الحصانين:

– «يدجن (دروثـر) الجياد الهندية في أي يوم، ومرتين أيام الأحد».

عادت إلى (بك) حواسه، ولكن لم تعد قوته. تمدّد حيث سقط، ومن هناك أخذ يراقب الرجل ذا البلوزة الحمراء.

– «يجيب على اسم (بك)». هكذا تحدث الرجل مع نفسه، مقتبساً من دفتر مسؤول الصالون، الذي كان يبين إرسالية الصندوق ومحتوياته. وواصل بصوت دافئ:

– «حسناً يا (بك)، يا فتاي، ها قد كان لنا شجارنا الصغير، وأفضل شيء يمكننا فعله هو أن ننسى ما جرى. لقد تعلمت مكانك، وأنا أعرف مكاني. كن كلباً طيباً وسيجري كل شيء حسناً ويكون كل شيء على ما يرام. كن كلباً رديئاً وسأضربك حتى أخرج حشوتك منك. مفهوم؟».

فيما كان يتكلم، ربت بلا خوف على الرأس الذي كان ضربه بدون رحمة، ومع أن شعر (بك) قفَّ طوعاً للمسة اليد، إلا أنه تحمّلها بدون اعتراض. وعندما جلب له الرجل الماء، شرب بلهفة، وبلع فيما بعد وجبة كريمة من اللحم، قطعة قطعة، من يد الرجل.

لقد ضُرب (كان يعرف ذلك)، ولكنه لم يتحطم. لقد رأى، مرة وإلى الأبد، أنه لم يكن يحظى بفرصة ضد رجل يحمل هراوة. لقد تعلّم الدرس، وطيلة حياته اللاحقة لم ينسه قط. كانت الهراوة كشفاً. كانت مدخله إلى سلطان القانون البدائي، وقد قابل المدخل في منتصف الطريق. اتخذت حقائق الحياة منحى أقسى، وفيما واجه ذلك المنحى دون وجل، فقد قابله بكل الوقاحة الكامنة لطبيعته المستثارة. وفيما مرت الأيام جاءت كلاب أخرى، في صناديق مشبكة وعند نهايات حبال، بعضها باستعداد للتعلّم، وبعضها يسعر ويعوي عندما كانت تجيء، وقد كان يراقبها – مفردة وجميعاً – تمر تحت سلطة الرجل ذي البلوزة الحمراء. مرة بعد مرة، فيما كان ينظر إلى كل عرض وحشي، كان (بك) يستذكر الدرس: إن رجلاً يحمل هراوة هو

مصدر للقانون، سيد يجب أن يطاع، مع أنه لا يتم كسبه يسيراً بالضرورة. لم يرتكب (بك) هذه الخطيئة قط، مع أنه رأى كلاباً مضروبة كانت تتقرب إلى الرجل، بهز ذيولها ولعق يده. وقد رأى أيضاً كلباً، لم يكن يسترضي ولا يطيع، يُقتل أخيراً في الصراع من أجل السيادة.

مرة وأخرى كان يأتي رجال، غرباء، كانوا يتكلمون بتهيج، بتملق، وبكل أنواع الأساليب، مع الرجل ذي البلوزة الحمراء. وفي الأوقات التي كان المال يتم تداوله بينهم، كان الغرباء يأخذون كلباً أو أكثر معهم. وكان (بك) يتساءل أين يذهبون، لأنهم لم يكونوا يعودون أبداً، ولكن الخوف من المستقبل كان يسيطر عليه قوياً، وكان سعيداً في كل مرة عندما لا يتم اختياره.

ومع ذلك، فقد حان وقته، أخيراً، في شكل رجل صغير نحيف كالقصبة كان يتكلم انكليزية مكسرة ويقول العديد من تعابير التعجب الغريبة الجافية التي لم يكن بمقدور (بك) أن يفهمها. عندما أضاءت عيناه لمرأى (بك)، صرخ:

- «اللعنة! ذلك الكلب - الثور الواحد الملعون! ايه؟ كم؟».

- «ثلاثمائة، وهو هدية بهذا السعر»، ذلك كان الجواب الآتي من الرجل ذي البلوزة الحمراء:

- «وإذ رأى أنها نقود حكومة، فليس هناك ما يجبرك على المجيء، ايه يا (بيرو)؟».

كشر بيرو. وإذ تأمل أن أسعار الكلاب قد قفزت إلى عنان السماء بفعل الطلب الشاذ فإن ذلك لم يكن مبلغاً غير منصف لحيوان على تلك البداعة. لن تكون الحكومة الكندية خاسرة، ولن تتأخر رسائلها في السفر. كان بيرو يعرف الكلاب، وعندما كان ينظر إلى (بك) كان يعرف أنه واحد من ألف. كان يعلق ذهنياً:

- «واحد من عشرة آلاف».

رأى (بك) النقود تنتقل بينهما، ولم يندهش عندما تم اقتياده مع

(كيرلي)، وهي كلبة طيبة الطبع من فصيلة النيو فاوندلاند، من قبل الرجل النحيف الصغير. كان ذلك آخر ما رآه من الرجل ذي البلوزة الحمراء، وفيما تطلع هو وكيرلي إلى انسحاب (سياتل) من رصيف الـ(ناروال)، كان ذلك آخر ما رآه من أرض الجنوب الدافئة. أخذ هو وكيرلي إلى أسفل من قبل بيرو وتم تسليمهما إلى عملاقٍ أسود يدعى فرانسوا. كان بيرو كندياً من أصل فرنسي، وداكناً، ولكن فرانسوا كان كندياً من أصل فرنسي هجين، وضعف داكن، كانا نوعاً جديداً من الرجال بالنسبة إلى (بك)، وكان من حظه أن يرى الكثيرين منهم، وفيما لم ينشأ لديه أي حب لهما إلا أنه، مع ذلك، ازداد احتراماً لهما باخلاص. وسرعان ما تعلم أن بيرو وفرانسوا كانا رجلين عادلين، هادئين وغير متحيزين في إقـرار العدل، وبالغي الحكمة فيما يتعلق بكيفية إيذاء الكلاب للكلاب.

في ما بين أرصفة الناروال، انضم (بك) وكيرلي إلى كلبين آخرين. كان أحدهما كلباً كبيراً أبيض كالثلج من (سبيتز بيرغن) تم جلبه إلى هناك على يد قبطان يصيد الحيتان، انضم فيما بعد إلى بعثة جيولوجية متجهة إلى (البارنز).

كان ودوداً، بطريقة مخاتلة، يبتسم في وجه الواحد بينما يتأمل حيلة خفية ما، كما فعل – مثلاً – عندما سرق من طعام (بك) عند الوجبة الأولى. ففيما قفز (بك) ليعاقبه، غنى سوط فرانسوا عبر الهواء، بالغاً المجرم أولاً، ولم يبق أمام (بك) غير أن يستعيد العظم. كان ذلك عدلاً من فرانسوا، كما استقر رأيه، وبدأ الهجين صعوده في تقدير (بك).

لم يقم الكلب الآخر بأية محاولات للتقرب، كما أنه لم يتلق أية محاولات من هذا النوع، كما أنه لم يحاول أن يسرق من القادمين الجدد. كان صاحباً حزيناً، جافياً، ولقد أظهر لكيرلي بوضوح أن كل ما يتمناه هو أن يترك وشأنه. كان يدعى (ديف)، كان يأكل وينام، ويتثاءب فيما بين ذلك، ولا يظهر رغبة في أي شيء، ولا حتى عندما تعبر الناروال (ساوند) كوين شارلوت) وتتدحرج

وتنشمر وتغلي مثل شيء به مس. وعندما كان (بك) وكيرلي يتهيجان، نصف متوحشين من الخوف، كا يرفع رأسه كما لو كان يحس قلقاً، ويمن عليهما بنظرة غير فضولية، ويتثاءب ثم يعود للنوم ثانية.

كانت الباخرة تنبض ليل نهار على وقع صوت الرفاس الذي لا يكلّ، ومع أن اليوم كان يشبه الآخر، فقد كان واضحاً لـ (بك) أن الجو كان يزداد برودة. وأخيراً، ذات صباح، هدأ الرفّاس، وتخلّل الناروال جو الانفعال. أحس ذلك، كما فعلت الكلاب الأخرى، وعرف أنه كان ثمة تغيّر وشيك. شدّ فرانسوا الكلاب بحبل وجلبها إلى السطح. وعند الخطوة الأولى على السطح البارد، غاصت أقدام (بك) في شيء أبيض عجيني يشبه الطين كثيراً. قفز متراجعاً وهو ينخر. وكان المزيد من هذه المادة البيضاء يساقط من فوق. هزّ نفسه، ولكن المزيد منه تساقط عليه. تشمّمه بفضول. ثم لعق بعضاً منه على لسانه. قرصه مثل النار، وفي اللحظة التالية ذهب. حيّره هذا. وحاول مرة ثانية، فأحرز نفس النتيجة. ضحك المتفرّجون بصخب، فأحس خجلاً، ولم يعرف لماذا، لأن ذلك كان جليده الأول.

٢- قانون الهراوة والناب

كان يوم (بك) الأول على ساحل الـ (ديا) مثل كابوس. كانت كل ساعة مملوءة بالصعقة والدهشة. لقد سحب فجأة من قلب المدنية وأطيح به في قلب أشياء أزلية. لم تكن هذه حياة كسولا تقبلها الشمس، لا يفعل فيها شيئاً غير أن يكسل ويسأم. هنا لم يكن ثمة سلام ولا راحة ولا أمن لحظة واحدة. كان كل ما هنالك الارتباك والعمل، وفي كل لحظة كانت أعضاء البدن والحياة نفسها تتعرّض للخطر، كانت ثمة حاجة مؤكدة لأن يكون الكلب يقظاً على الدوام، لأن هؤلاء الكلاب والرجال لم يكونوا كلاب المدينة ورجالها. كانوا متوحشين، جميعهم، لا يعرفون قانوناً غير قانون الهراوة والناب.

لم يسبق له أن رأى كلاباً تتعارك كما كانت هذه المخلوقات الذئبية تتعارك، وقد علمته تجربته الأولى درساً لا ينسى. صحيح أنها كانت تجربة بالنيابة، وإلا لما كان قد عاش لينتفع بها. وكانت كيرلي الضحية. كانوا قد خيّموا قرب مخزن الخشب، حيث أخذت - بطريقتها الودية - تقوم بحركات تتقرّب بها إلى كلب هوسكي[٢] بحجم ذئب تام النمو، مع أنه لم يكن ليبلغ نصف حجمها، لم يكن ثمة تحذير، بل مجرد قفزة كالوميض، وقعقعة معدنية لأسنان، وقفزة ابتعاد بمثل الخفة، ها قد تمزق وجه كيرلي مفتوحاً من العين إلى الفك.

كانت تلك حال الذئب في العراك، الضرب ثم الابتعاد قفزاً، ولكن كان فيها شيء أكثر من ذلك. لقد ركض ثلاثون أو أربعون هوسكياً إلى الموقع وطوقوا المتعاركين بدائرة محكمة وصامتة. لم يفهم

---

(٢) من كلاب الاسكيمو.

(بك) ذلك الإحكام الصامت، ولا الطريقة المتلهِّفة التي كانت تعلقٍ بها شفاهها. دفعت كيري خصمها، الذي ضرب ثانية وقفز جانباً. ثم قابل اندفاعتها التالية بصدره، بطريقة غريبة قلبتها عن قوائمها. ولم تستعد قوائمها قط. وكان ذلك ما كانت الكلاب الهوسكية تنتظره. تحلقت حولها، مكشرة ونابحة، حتى اندفنت – وهي تصرخ في ألم مبرح – تحت كتلة الأجساد المنتصبة.

وكان ذلك من الفجاءة، ومن عدم التوقع، بحيث أن (بك) ذهل له. رأى (سبتز) يمر لسانه القرمزيٍ بطريقة كان يستعملها عندما يضحك، ورأى فرانسوا – ملوحاً بفأس – يقفز داخل فوضى الكلاب. كان ثلاثة رجال يٍحملون الهراوات يساعدونه على بعثرتها. لم يستغرق ذلك طويلاً. فبعد هبوط كيرلي متداعية بدقيقتين، كان آخر مهاجميها يطرد بالهراوات. ولكنها كانت تتمدّد هناك رخوة وعديمة الحركة فٍي الثلج الدامي المداس بالأقدام، تكاد تكون ممزقة إلى نتف، حرفياً، والخلاسي داكن اللون يقف فوقهٍا ويلعن بفظاعة. غالباً ما كان المشهد يعاود (بك) ليزعج منامه. إذاً، فهكذا كانت الطريٍقة. ليست لعبة عادلة. ما أنٍ تسقط، حتى تكون تلك نهايٍتك. حسناً، سيراعي ألا يتداعى هاوياً قط، أمرّ سبتز لسانه مركضاً إياه وضحك مرة أخرى، ومنذ تلك اللحظة كرهه (بك) بحقد مرير لا يموت.

وقبل أن يفيق من الصدمة التي سبّبها الموت الفاجع لكيرلي، تلقّى صدمة أخرى، لقد ثبت فرانسوا عليه شبكة من القيود والأبازيم. كانت مواد سراجة، مثل تلك التي رأيٍ السياس يضعونها على الخيل في موطنه. كما كان قد رأى خيلاً تعمل، فقد تمّ سوقه إلى العمل، يجر فرانٍسوا على زحافة إلى الغاية التي كانت تحيط بالوادي، وعائداً بحمل من خشب الوقود. ومع أنّ كرامته قد أوذيت بمرارة بجعله حيوان جر على هذه الصورة، فقد كان أعقل من أن يتمرّد. لقد تٍطوّع بإٍرادة وفعل أحسن ما يٍستطيع، مع أن ذلك كلّه كان جديداً وغريباً. كان فرانسو متشدداً، يطلب الطاعة

الدائمة، وبفاعلية سوطه كان يتلقّى الطاعة الآنية، وفي حين كان ديف، الذي كان مراوغاً ذا خبرة، يعض قائمتي (بك) الخلفيتين كلما كان يخطئ. كان سبتز القائد، وهو ذو خبرة كخبرة رديف، وفيما لم يكن بمقدوره الوصول دائماً إلى (بك)، فقد كان يزأر بين الحين الآخر تعنيفاً حاداً، أو يرمي وزنه – بتحرش – بين الأعنة لكي يشمر (بك) إلى الطريق التي سيمضي عليها. وتعلم (بك) بيسر، وتحت التعليم المشترك لرفيقيه ولفرانسوا، حقق تقدماً ملحوظاً، وما أن عادوا ليخيموا حتى كان يعرف ما يكفي لكي يقف عند صيحة «هو»، وأن ينطلق عند سماعه «امض»، وأن يتحرك عريضاً على العقد، وأن يفسح الطريق أمام العجلة عندما كانت الزحافة المحملة تنطلق نازلة التل في أعقابهم.

– «ثالث كلب جيد جداً»، أخبر فرانسوا بيرو.

– «ذاك (بك)، هو يسحب مثل الجحيم. أنا أعلمه سريعاً مثل أي شيء».

وعند العصر عاد بيرو – الذي كان يتعجّل أن يصير على الطريق مع رسائله – ومعه كلبان آخران، (بيلي) و (جو) كان يدعوهما، وكانا أخوين، وهوسكيين حقيقيين كلاهما. ومع أنهما كانا ابن أم واحدة، إلا أنهما كانا مختلفين اختلاف النهار عن الليل. كانت غلطة (بيلي) الوحيدة طبعه ذا الطيبة الزائدة، في حين كان (جو) النقيض التام: فظاً ومنطوياً، وله نباح مستديم وعنيف حقود. استقبلهما (بك) على نحو ودّي، وتجاهلهما ديف، في حين شرع سبتز يضرب الأول منهما أولاً، ثم الثاني. هز بيلي ذيله مهدئاً، واستدار ليركض عندما رأى أن التهدئة كانت غير ذات جدوى، وصرخ، (ما يزال مهدئاً)، عندما جرحت أسنان سبتز الحادة كشحه. ولكن حالما دار سبتز، فقد دوم جو على عقبيه كي يواجهه، وعرفه مشرئب، وأذناه مطوحتان إلى وراء، وشفتاه تتلويان وتنعقدان، وفكاه يقرقعان معاً بأسرع ما كان بمقدوره أن يطبقهما، والعينان تشعان بشيطانية – تجسيداً لخوف المقاتل. ولقد كان مظهره يدل على ارتعاب بحيث

اضطر سبتز أن يتخلى عن محاولته، ولكن لكي يغطي ارتباكه الذاتي استدار نحو بيلي اللا هجومي، والنادب، وساقه إلى حدود المخيم.

عند المساء أمن بيرو كلباً آخر، هوسكيا كبيراً، طويلاً ونحيفاً ومغضباً، له وجه علمته المعارك وعين واحدة كانت تومض تحذيراً من شجاعة تفرض الاحترام. كان يدعى (سول – ليكس)، أي: الغاضب. مثل ديف، لم يكن يطلب شيئاً، ولا يعطي شيئاً، ولا يتوقع شيئاً، وعندما كان يتمشى ببطء وتعمد إلى وسطهم، كان حتى سبتز يتركه وشأنه. كانت له خاصية واحدة كان (بك) من سوء الطالع بحيث كان هو الذي اكتشفها. لم يكن يحب أن يقترب إليه أحد من جهته العمياء. ولقد ارتكب (بك) هذا الذنب من دون قصد، وكانت أول معرفة حصل عليها عن لا لياقته عندما دوم سول ليكس نحوه وشق كتفه حتى العظم بطول ثلاثة انجات إلى أعلى وإلى أسفل. وحتى النهاية بعدئذ كان (بك) يتجنب جانبه الأعمى، وحتى النهاية من رفقتهما لم يصادف مشاكل أخرى. وكان طموحه الوحيد الظاهر، شأنه شأن ديف، أن يترك وشأنه، مع أن كليهما – كما عرف (بك) فيما بعد – كان له طموح آخر، وحتى أكثر حيوية.

تلك الليلة واجه (بك) مشكلة النوم العظمى. كانت الخيمة – التي تضيئها شمعة – تشع بدفء وسط السهل الأبيض، وعندما دخلها – على نحو طبيعي – قصفه بيرو وفرانسوا معاً باللعنات وأوعية الطبخ، حتى أفاق من ذعره المشل وهرب خجلاً إلى برد الخارج. كانت ريح باردة تهب فتخزه بحدة وتنهش بحقد خاص داخل كتفه الجريح. استلقى على الجليد وحاول أن ينام، ولكن سرعان ما ساقه الصقيع مرتعشاً للوقوف على قدميه. تعيساً وغير مرتاح، تجول في الأنحاء بين عدة خيم، لا لشيء إلا ليجد أن هذا المحل بمثل برودة ذاك. هنا وهناك كانت كلاب متوحشة تندفع نحوه، ولكنه كان يقف شعر رقبته ويكشر عن أنيابه (لأنه كان يتعلم سريعاً)، فكانت تتركه يمضي لطيته دون ازعاج.

أخيراً جاءته فكرة: أن يعود فيرى كيف كان زملاؤه في الفريق

يتدبرون شأنهم. ومما أدهشه أنهم اختفوا. مرة أخرى راح يتجول عبر المخيم العظيم، باحثاً عنهم، ومرة أخرى عاد. هل كانوا في الخيمة؟ كلا، لا يمكن أن يكون ذلك، وإلا لما طرد هو خارجاً. اذن، فأين يمكن أن يكونوا؟ بذيل متهدل وجسد مرتعش، وهو مخذول جداً في الحقيقة، تسكع دائراً حول الخيمة. فجأة هوى الجليد تحت قائمتيه الأماميتين فهبط غائصاً. تلوى شيء ما تحت قائمتيه، ققفز متراجعاً، منتصباً وعاوياً، خائفاً من اللا مرئي واللا معلوم. ولكن صرخة ودية صغيرة طمنته، فرجع يتقدم كي يتحرى جلية الأمر. صعدت نسمة من الهواء الدافئ إلى منخريه، وهناك، منطوياً تحت الجليد في كرة مرصوصة، كان يتمدد بيلي. تملق مسترضياً، واطوى وتلوى ليبين حسن إرادته ونواياه، بل حتى جازف – كرشوة من أجل السلام – أن يلعق وجه (بك) بلسانه الدافئ الرطب.

درس آخر. إذاً، فتلك طريقتهم لتدبر الأمر، أيه؟ اختار (بك)، واثقاً، نقطة. وبمزيد من الصخب ومضيعة الجهد، انطلق يحفر لنفسه فجوة. وبسرعة خاطفة ملأت الحرارة المنبعثة من جسده المجال المحدّد فنام. كان النهار طويلاً ومجهداً، فنام نومة عميقة مرتاحة، مع أنه هر ونبح وتصارع مع أحلام رديئة.

ولم يفتح عينيه حتى أيقظته ضجة المخيم المستيقظ. في البدء، لم يعرف أين كان. لقد هطل الجليد طيلة الليلة فدفن تماماً. كانت جدران الجليد تضغطه من كل جانب، فاكتسحته موجة طاغية من الخوف – خوف الوحش من الفخ. كان ذلك علامة على أنه كان يسترجع، عبر حياته الخاصة، حيوات أسلافه، لأنه كان كلباً متحضراً، كلباً متحضراً أكثر من اللازم، لم يعرف من تجربته الخاصة أي فخ، وهكذا فلم يكن بمقدوره أن يخشاه من ذاته. تقلصت عضلات جسده كلّه بتشنج وبغريزية، قفَّ شعر عنقه وكتفيه، وبعواء ضار قفز باستقامة إلى النهار المعمي، والجليد يتطاير حوله في غمامة براقة. ما أن استقر على قدميه، حتى رأى المخيم الأبيض ممتداً أمامه فعرف أين كان وتذكر كل ما مر منذ ذهب يتمشى مع مانويل حتى الحفرة التي حفرها لنفسه الليلة الماضية.

حيت صرخة من فرانسوا:

- «ماذا أنا أقول؟»، هكذا صرخ سائق الكلاب نحو بيرو.

- «ذاك (بك) مؤكد يتعلم سريعاً مثل أي شيء».

هز بيرو رأسه من أعلى إلى أسفل متأملاً. إنه، وهو حامل بريد الحكومة الكندية، الذي ينقل مراسلات هامة، كان يهتم بتأمين خيرة الكلاب، وكان مسروراً بشكل خاص لحصوله على (بك).

أضيفت ثلاثة هوسكيات إلى الفريق خلال ساعة، جاعلة إياه مؤلفاً من تسعة، وقبل مرور ربع ساعة أخرى أسرجت وكانت تتبختر بين الأعنة نحو وادي الديا. سر (بك) لأنهم انطلقوا، ومع أن العمل كان شاقاً إلا أنه وجد أنه لا يمكنه أن يكرهه. وقد دهش للهفة التي أحيت الفريق كله، التي انتقلت إليه، ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة كان التغيير المصمم على ديف وسول ليكس. كانا كلبين جديدين، تغيرا تماماً بفعل السراجة. سقطت عن الكلاب كل سلبية ولامبالاة. كانت متيقظة ونشيطة، متلهفة على أن يجري العمل حسناً، ومتهيجة بضراوة لكل ما من شأنه - نتيجة للتأخير أو الارباك - أن يؤخر العمل. وبدأ الكد على الطريق التعبير الأسمى عن وجودها وعن كل ما كانت تعيش من أجله والشيء الوحيد الذي تبتهج له.

كان ديف «دواراً»، أو كلب زلاجة، وكان (بك) يجر أمامه، ثم يأتي سول ليكس، وكان باقي الفريق مشدوداً إلى أمام، في رتل منفرد، حتى القائد، ذلك المركز الذي كان يشغله سبتز.

كان (بك) قد وضع عمداً فيما بين ديف وسول ليكس بحيث يمكن أن يتلقى التدريب. وبقدر ما كان تلميذاً سريع التعلم، كانا هما معلّمين جيدين، لا يتركانه يتخلّف خطأً، ويفرضان تعليمهما بأسنانهما الحادة. كان ديف منصفاً وعاقلاً جداً. لم يعض (بك) قط من دون سبب، كما أنه لم يتخلّف عن عضه قط عندما كان يستحق ذلك. ولما كان سوط فرانسوا يعضده، فقد وجد (بك) أن تصليح أساليبه أرخص من الرد. وذات مرة، أثناء توقف قصير، عندما

اشتبكت رجله بالأعنة فأخر البداية، طار ديف وسول ليكس نحوه ووجها له ضرباً شديداً. كان التعثر الناجم عن ذلك أسوأ، ولكن (بك) اهتم كثيراً بإبقاء الأعنة خالية بعدئذ، ولما انصرم النهار كان قد تسيّد على عمله كثيراً بحيث كاد زميلاه أن يكفّا عن اكتشاف أخطائه. وأخذ سوط فرانسوا يلسع أقل، بل إن بيرو كرم (بك) برفع قوائمه وفحصها بعناية.+

كان جري يوم شاقاً، صعوداً في الوادي، عبر (وادي الخراف)، تجاوزوا الـ (سكيلز) و (خط الخشب)، مقابل كتل ثلجية هابطة ومستقرة أعمق بمئات الأقدام. وفوق الـ (شيكلوت ديفايد) العظيم، الذي يقف ما بين الماء المالح والماء العذب ويحمي الشمال الحزين المتفرد بشكل يجعله منيعاً. واستمتعوا أسفل سلسلة البحيرات التي تملأ فتحات البراكين الخامدة، وفي وقت متأخر من تلك الليلة اتجهوا إلى المخيم الضخم عند رأس بحيرة (بينيت)، حيث كان الآلاف من الباحثين عن الذهب يبنون الزوارق عند تكسر الثلج في الربيع. صنع (بك) حفرته في الجليد ونام نومة المتسابق المتعب، ولكن جرى إخراجه مبكراً، في الظلام. فأسرج مع زملائه إلى الزلاجة.

في ذلك اليوم قطعوا أربعين ميلاً، إذ كان الطريق محشواً بالجليد، ولكن في اليوم التالي، وفي أيام أخرى تالية، كسروا طريقهم نفسه وعملوا بجهد أكبر، وحققوا سرعة أقل. كقاعدة، كان بيرو يتقدم على رأس الفريق، جامعاً الجليد بحذائين مصبوبين، ليسهل الأمر عليهم. أما فرانسوا، الذي كان يقود الزلاجة عند طرف الإيعاز، فقد اكن يتبادل الموقع معه، ولكن ليس كثيراً. كان بيرو مستعجلاً، ولقد افتخر بنفسه لمعرفته بالجليد، تلك المعرفة التي لم يكن من غنى عنها، لأن جليد الخريف كان رقيقاً جداً، وحيث كان ثمة ماء دافق، لم يكن ثمة جليد على الإطلاق.

يوماً بعد آخر، طوال أيام لا تنتهي، كان (بك) يشقى في الأعنة. دائماً كانوا يفككون المخيم في الظلام، وفي أول خط رمادي من خيوط الفجر يجدهم يضربون الطريق بأميال جديدة مطوية

وراءهم. وكانوا دائماً ينصبون المخيم بعد الظلام، آكلين حصتهم من السمك، وزاحفين ليناموا في الجليد. كان (بك) يتضور جوعاً!. كان الرطل ونصف الرطل من سمك السالمون المجفف بالشمس – والذي كان حصته اليومية – يبدو وكأنه لا يذهب إلى مكان معين. لم يكن يتناول كفايته قط، وكان يعاني من نوبات جوع مستديمة. ومع ذلك، فإن الكلاب الأخرى – لأنها كانت تزن أقل ولأنها كانت مخلوقة لتلك الحياة – كانت تتسلم رطلاً واحداً فقط من السمك، ومع ذلك كانت تدبر أمرها فتبقى بوضع جيد.

لقد فقد، بسرعة، القرف الذي ميّز حياته الماضية. وإذ كان أكولاً منتقياً فقد وجد أن زملاءه – إذ كانوا ينتهون من طعامهم أولاً – يسرقون منه حصته غير المأكولة. لم يكن الدفاع عنها وارداً. فبينما كان يجاهد كلبين أو ثلاثة ليطردها، كان السمك يختفي في حناجر الآخرين. وليعالج ذلك، فقد كان يأكل بمثل سرعتها، كما أنه – إذا كان الجوع يضطره اضطراراً – لم يكن يأخذ ما لا يخصه. كان يراقب ويتعلم. وعندما رأى (بايك) – وهو أحد الكلاب الجديدة – وكان متمارضاً ولصاً، يسرق بخفة قطعة من لحم الخنزير عندما كان بيرو يدير ظهره، كرّر (بك) العملية في اليوم التالي، مبتعداً ومعه كل القطعة. ارتفع صخب عظيم، ولأنه هو لم يكن موضع شك، في حين عوقب (دوب) – وهو كثير الأخطاء أخرق كان يكتشف دائماً – بسبب سلوك (بك) الرديء.

لقد ميزت هذه السرقة الأولى (بك) بوصفه قادراً على البقاء في بيئة الشمال المعادية. ميزت قدرته على التكيف، مقدرته على تكييف نفسه للظروف المتغيرة، تلك المقدرة التي كان الافتقار لها يعني الموت البطيء الرهيب. كما ميزت، أيضاً، تفسخ أو تهشم طبيعته الأخلاقية، وهي شيء لا جدوى فيه، وعائق في الصراع القاسي من أجل الوجود. كان جيداً بما يكفي في أرض الجنوب، في ظل قانون الحب والزمالة، احترام الملكية الخاصة والمشاعر الشخصية. ولكن في أرض الشمال، تحت قانون الهراوة والناب، فإن من يأخذ

مثل هذه الأمور في الحسبان كان أحمق، وبقدر ما كان يلتزم بها كان يفشل في أن يعيش برفاهية.

لم يحدث أن فكر (بك) في الأمر. كان قادراً على التكيّف، هذا كل ما هنالك، ولقد كيف نفسه دون وعي لنمط الحياة الجديد. طيلة أيامه، بصرف النظر عن المزايا التي في صالحه، لم يسبق له قط أن فرّ من قتال. ولكن هراوة الرجل ذي البلوزة الحمراء قد عزّزت فيه، بالضرب، قانوناً أكثر جذرية وبدائية. حين كان متحضراً، كان بمقدوره أن يموت من أجل اعتبار أخلاقي، لنقل: من أجل سوط ركوب القاضي ميلر، ولكن اكتمال تجرّده من الحضارة قد تمّ التدليل عليه الآن بقدرته على الهروب من الدفاع عن أي اعتبار أخلاقي وهكذا ينقذ جلده. لم يسرق من أجل متعة السرقة، ولكن بسبب صراخ معدته المستمر. لم يسرق على المكشوف. ولكنه سرق بسرية وحذق، احتراماً للهراوة والأنياب. وباختصار، فإن الأفعال التي فعلها إنما فعلها لأن القيام بها كان أسهل من عدم القيام بها.

كان تطوّره (أو رجوعه لماضيه) سريعاً، تصلّبت عضلاته كالحديد، وصار عصياً على كل ألم اعتيادي. لقد حقّق اقتصاداً داخلياً بقدر الخارجي. تمكّن أن يأكل كلّ شيء، لا يهم كم كان كريهاً أو عصياً على الهضم، ثم – ما أن يؤكل – فإن عصائر معدته كانت تستخلص آخر جزيئة أخيرة من المغذي، وكان دمه يحملها إلى أبعد مديات جسده، بانياً إياها ليجعلها أقوى وأمتن الأنسجة. أصبح النظر والشمّ حادّين بشكل ملحوظ، فيما طور سمعه حدة بالغة بحيث أنه كان يسمع في نومه أخبى الأصوات ويعرف إن كانت تنبئ بالسلام أو بالخطر. تعلّم أن يعض الثلج مبعداً إياه بأسنانه عندما كان يتجمّع بين أصابع رجليه، وعندما كان يعطش ويكون ثمة طبقة من الثلج سميكة فوق الحفرة المائية كان يكسرها بالتراجع ويضربها بقائمتيه الخلفيتين المتصلّبتين. وكانت خاصيته الأكثر إثارة للانتباه قدرته على شم الريح والتنبؤ بشأنها قبل ليلة. فمهما كان الهواء عديم الحركة

عندما كان يحفر عشه عند شجرة أو جرف، فإن الريح التي كانت تهب بعدئذ كانت تجده حتماً خارج مهب الريح، محمياً ومدثراً.

وهو لم يتعلّم عن طريق التجربة فقط، لكن انبعثت فيه غرائز كانت ميتة منذ أمد بعيد. سقطت عنه الأجيال المدجنة. بطرق غامضة تذكر صبا سلالته، حتى الوقت الذي كانت فيه الكلاب المتوحشة تجوس في حشود الغابة البدائية وتقتل طرائدها فيما هي تلتهمها. لم تكن مهمته أن يتعلم القتال بالجرح والطعن ونهشة الذئب السريعة. بهذه الحالة قاتلت أسلاف منسية. لقد عجلت الحياة العتيقة داخله، وأن الحيل القديمة التي انختمت في إرث السلالة كانت حيله. جاءته من دون جهد أو اكتشاف، كما لو كانت عنده على الدوام. عندما كان يصوب أنفه - في الليالي التي ما تزال باردة - نحو نجمة ما ويعوي طويلاً ومثل الذئاب، كان أسلافه - موتى ومستحيلين ترابا - هم الذين يصوّبون الأنوف للنجوم ويعوون نزولاً عبر القرون إليه. وكانت اتساقاته اتساقاتهم، الاتساقات التي تعضد حزنهم وما كان بالنسبة له معنى للسكون والبرد والظلام.

وهكذا، كعلامة على مدى كون الحياة لعبة، تصاعدت الأغنية العتيقة فيه فعاد إلى ذاته الأصلية مرة أخرى، وقد عاد لأن رجالاً قد وجدوا معدنا أصفر إلى الشمال، ولأن مانويل كان مساعد بستاني لا تتجاوز أجوره احتياجات زوجته وكان يعدد نسخاً صغيرة من نفسه.

٣- الوحش المسيطر الأزلي

كان الوحش المسيطر الأزلي قوياً في (بك)، وتحت الظروف القاسية لحياة الطريق نما ونما. ومع ذلك فقد كان نمواً سرياً. لقد أعطته مهارته حديثة الولادة توازناً وسيطرة. كان مشغولاً جداً في تكييف نفسه للحياة الجديدة بحيث ما كان بمقدوره أن يحس راحة، وهو لم يكتف بأن لم يبحث عن المنازعات، بل إنه كان يتجنبها. وقد ميز حذر معين موقفه. لم يكن عرضة للاندفاع والعمل المفاجئ السريع، وفي الكراهية المريرة بينه وبين سبتز لم يكشف عن أي نفاذ صبر، قد تجنب كل عمل هجومي باستمرار وعناية بالغين.

ومن الجهة الأخرى، ربما لأنه عرف في (بك) خصماً خطيراً، فإن سبتز لم يضيع فرصة قط لإظهار أنيابه. بل إنه حتى خرج عن طوره لكي يستدرج (بك)، مجاهداً على الدوام كي يبدأ شجاراً ما كان يمكن أن ينتهي إلا بموت أحدهما.

في وقت مبكر من الرحلة كان يمكن لهذا أن يقع لولا حدث غير مألوف. ففي نهاية هذا اليوم أعدّوا وليمة سمك وأقاموا مخيماً تعساً على شاطئ بحيرة (لي بارج). كان الثلج المهطال، والريح التي تقص مثل سكين محماة حتى الابيضاض، والظلام، قد أجبرهم على أن يبحثوا بصعوبة عن مكان لإقامة المخيم. بالكاد كان يمكن أن يلقوا أسوأ. وعند ظهورهم كان يرتفع جدار قائم من الصخر، وقد اضطر بيرو وفرانسوا إلى إشعال نارهما ونشر حبال نومهما على ثلج البحيرة ذاته. كانا قد اطرحا الخيمة في الديا لكي يسافرا خفيفين. وقد وفرت لهم بضعة أعواد، من الخشب الذي جرفته المياه، ناراً كانت تذوب في الثلج فتتركهم يتناولون عشاءهم في الظلام.

إلى الداخل تحت الصخرة الحامية أقام (بك) عشه. كان محمياً

من الطقس ودافئاً للغاية بحيث أنه كان يكره أن يتركه عندما راح فرانسوا يوزع السمك الذي سبق له أن أذابه على النار. ولكن عندما أنهى (بك) حصته وعاد، وجد عشه محتلاً. وأخبره هرير تحذيري أن المتجاوز كان سبتز. حتى الآن كان (بك) قد تجنّب المشاكل مع عدوه، ولكن هذا كان كثيراً جداً. زأر الوحش داخله. قفز على سبتز بسعار أدهشهما كليهما، وسبتز بشكل خاص، لأن مجمل تجربته مع (بك) قد علّمته أن خصمه كان كلباً حيادياً بشكل غير اعتيادي، يتدبر أن يمسك نفسه بسبب وزنه وحجمه العظيمين.

ودهش فرانسوا، هو الآخر، عندما انطلقا في اشتباك من العش المنفجر، فتكهّن سبب المشكلة. صرخ بـ (بك):

– «آه! أعطِ له إياها بحق الله! إعط له إياها، اللص القذر!».

وكان سبتز راغباً بنفس القدر. كان يصرخ بجنون ولهفة خالصة فيما كان يدور إلى وراء وإلى أمام بحثاً عن فرصة الوثوب الداخل. لم يكن (بك) أقل لهفة، كما لم يكن أقل حذراً فيما راح هو الآخر يرجع ويتقدم إلى الوراء وإلى الأمام متحيناً الفرصة المناسبة. ولكن في ذلك الوقت وقع اللامتوقع، وقع ما دفع صراعهما من أجل التسيد بعيداً في المستقبل، عبر العديد من الأميال المتعبة من الطريق والكد.

أعلن قَسَمٌ من بيرو، والواقع الرنان لهراوة فوق جسد متعظم، ونبحة ألم حادة، أعلنت جميعاً اندلاع الجحيم. واكتشف فجأة أن المخيم كان حياً بأشكال فرائية متلصصة، كلاب أسكيمو متضورة جوعاً، ثمانين أو مائة منها، كانت قد شمت رائحة المخيم من قرية هندية. كانت قد زحفت داخلة فيما كان (بك) وسبتز يتقاتلان، وعندما قفز الرجلان بينهما حاملين هراوتين غليظتين، كشفت عن أنيابها، وقاتلت دفاعاً. وجد بيرو أحدها ورأسه مدفون في صندوق الطعام. استقرت هراوته بثقل على ضلوع الكلب الهزيل، فانقلب صندوق الطعام على الأرض. على التو كان عشرون وحشاً ممن يعانون المجاعة يتقاتلون من أجل الخبز ولحم الخنزير. تساقطت الهراوات فوقها من كل حدب. نبحت وهرَت تحت مطر الضربات، ولكنها

بقيت مع ذلك تصارع في جنون حتى تمّ التهام آخر كسرة.

في هذه الأثناء كانت كلاب الفريق المدهوشة قد انطلقت من أعشاشها لا لشيء إلا لتتفرج على المجتاحين الضواري. لم يسبق أن رأى (بك) قط كلاباً كتلك. كان يبدو كما لو أن عظامها ستتشق جلودها. كانت مجرد هياكل عظمية مسدلة عليها، بارتخاء، جلود متسخة، عيونها تبرق وأنيابها تسيل لعاباً. ولكن جنون الجوع كان يجعلها مرعبة، لا تقاوم. ما كانت هناك مقاومة لها. اكتسحت كلاب الفريق وأرجعتهم حتى الجدار الصخري منذ الهجوم الأول. طوقت ثلاث هوسكيات (بك)، وفيٍ رمشة عين كان رأسه وكتفاه ممزقة وفاغرة. كان الضجيج مخيفاً. كان بيلي يبكي كالمعتاد. وكان ديف وسول – ليكس اللذان ينزفان الدم من عشرات الجروح يقاتلان بشجاعة جنباً إلى جنب. وكان جو ينهش فجأة كالشيطان. ما أن كانت أنيابه تنطبق على القائمة الأمامية لهوسكي ما حتى كان يقضم عبر العظم. وقفز بايك، المتمارض، على الحيوان المصاب بالعجز، كاسراً عنقه بتعرية أنياب سريعة ونترة رأس. وأمسك (بك) بخصم مزبد من الحنجرة، وقد رشه الدم عندما غاصت أسنانه في شريان العنق. حفزه المذاق الدافئ في فمه إلى ضراوة أعظم. طوح نفسه على آخر وأحس بنفس الوقت أنياباً تغوص في حنجرته ذاتها، كان سبتز يهاجمه، بخيانة، من جانب.

بعد أن نظف بيرو وفرانسوا حصتهما من المخيم، أسرعا لإنقاذ كلاب زحافتهما. انطوت الموجة الضارية من الوحوش التي جنّنتها المجاعة أمامهما، ونفض (بك) نفسه فحرّرها. ولكن ذلك لم يدم غير لحظة. فقد اضطر الرجلانِ للجري عائدين كي ينقذا الطعام، الذي عادت الهوسكيات إليه رداً على هجوم الفريق عليها. قفز بيلي، الذي نفخ فيه الرعب شجاعة، عبر الدائرة المتوحشة وفرّ هارباً فوق الثلج. تبع بايك ودوب خطاه، وبقية الفريق إلى الخلف منهما. وفيما تجمع (بك) كي يقفز وراء الجميع، رأى من طرف عينه سبتز ينطلق نحوه واضح النية في الاطاحة به. وما أن يتداعى على قدميه ويستقر

تحت كتلة الهوسكيات حتى لا يعود أمامه أي أملٍ. ولكنه تصلب أمام صعقة هجوم سبتز، ثم انضم إلى الفرار خارجاً على البحيرة.

فيما بعد، تجمع كلاب الفريق التسعة معاً وبحثوا عن مأوى في الغابة. ومع أنهم لم يكونوا مطاردين، فقد كانوا في حال تبعث على الأسف. فكل واحد منهم مجروح في أربعة مواضع أو خمسة، في حين كان بعضهم مجروحاً بشكل موجع. كان دوب مصاباً بشكل مؤلم في قائمة خلفية، وحصلت (دولي) - وهي آخر هوسكية أضيفت إلى الفريق في الديا - على حنجرة ممزقة شر تمزقٍ، وفقد جو عيناً، في حين كان بيلي - طيب الطبع - الذي خرج بأُذن معلوكه لم يتبق منها غير شرائط، يبكي ويعول طوال الليل. وعند طلوع النهار ساروا، يعرجون، عائدين بحذر إلى المخيم، ليجدوا الغزاة قد ذهبوا والرجلان في مزاج رديء. كان نصف تجهيزهم من الطعام قد ذهب. لقد مضغ الهوسكية حبال الزلاجة والأغطية الجنفاص. في الحقيقة، لم ينج من مخيمهم شيء كائنا ما كان، ومهما بعدت صلاحيته عن الأكل، لقد أكلوا زوج صنادل بيرو المصنوعين من جلد الوعل، وشريحة من الأعنة الجلدية، وحتى قدمين من نهاية سوط فرانسوا الذي انفصم عن تأملاته الآسية كي يتطلع إلى كلابه الجريحة، قال بنعومة:

- «آه، يا أصدقائي، قد تجعلكم مسعورة، هذه العضات الكثيرة، ربما هي جميعها مسعورة. اللعنة! ماذا تظن أنت، يا بيرو، ايه؟».

هز المراسل رأسه متوجساً. فإذا كانت لا تزال هنالك أربعمائة ميل من الطريق بينه وبين داوسون، فما كان بمقدوره أن يتحمّل انفجار السعار بين كلابه. أعادت ساعتان من السباب والاجهاد السروج إلى وضعها الطبيعي، وصار الفريق المجروح المتصلب على الطريق، مجاهداً بألم على أصعب جزء من الطريق الذي واجهه لحد الآن، والذي كان لذلك السبب الجزء الأصعب بينهم وبين داوسون.

كان نهر الـ (ثرتي مايل) مفتوحاً. كان ماؤه المتوحش قد تحدى

الصقيع، وقد كان الثلج في الأماكن المنزوية وفي الأماكن الراكدة فقط يتماسك. تطلب الأمر ستة أيام من الجهد المرهف لتغطية هذه الأميال الثلاثين المرعبة. ومرعبة كانت، لأنّ كل قدم منها كان يتم تخطيه مجازفة بحياة كلب أو إنسان. عشر مرات خرق بيرو – وهو يكاد ينكب على الطريق متشمماً – جسور الثلج، ولم يكن ينقذه إلا العمود الطويل الذي كان يحمله، والذي كان يحمله بطريقة تجعله يسقط دائماً عبر الحفرة التي كان يصنعها جسده، ولكن موجة باردة كانت تهب، والمحرار يسجل خمسين تحت الصفر، وفي كل مرة كان يشق طريقه كان يضطر، من أجل الحياة ذاتها، أن يشعل ناراً وأن يجفّف ملابسه.

لم يكن يخيفه شيء. ولأنه لم يكن يخيفه شيء فقد اختير مراسلاً حكومياً. اتخذ كل هيئة المغامرة، غارزاً بعزم وجهه الجاف الصغير في الصقيع ومكافحاً من الفجر المعتم حتى ظلام الليل. طاف الشطآن الصامتة على الجليد الدائري الذي كان يتقوس ويخشخش متهمشاً تحت قدميه، والذي لم يكونوا ليجرؤوا على التوقف فوقه. ذات مرة، سقطت الزلاجة في فجوة، وهي تحمل ديف و(بك)، حتى كادا يتجمدان وأوشكا أن يغرقا عندما جرى سحبهما إلى فوق. وكانت النار الاعتيادية ضرورية لإنقاذهما. كانا قد تغلفا بمعطف سميك من الثلج، وأبقاهما الرجلان يتحركان عند النار، وهما ينضحان عرقاً ويذوبان، قريبين أحدهما من الآخر بحيث كان اللهيب يحرق شعرهما.

وفي مناسبة أخرى سقط سبتز، ساحباً وراءه الفريق كله لغاية (بك)، الذي راح يشد متخلفاً بكل قوته، ومخالبه الأمامية على الحافة الزلقة فيما الثلج يهتز ويتحطم حوله من كل مكان. ولكن وراءه كان ديف، يشد مثله إلى وراء، ووراء الزلاجة كان فرانسوا يسحب حتى تمزقت ألياف عضلاته.

ومرة أخرى، انهار جليد الإطار من أمام ومن وراء، ولم يعد ثمة من مفرد عدا اللجوء إلى ما فوق الجدار الصخري. رفعه بيرو

بمعجزة، فيما كان فرانسوا يصلي من أجل تلك المعجزة بالذات، وبكل شريط جلدي وقطعة حبل زلاجة، وبآخرٍ قطعة من السراجة متخللة في حبل طويل، رفعت الكلاب، واحداً بعد الآخر، حتى النتوء الأعلى للجدار الصخري. صعد فرانسوا في الآخر، بعد الزلاجة والحمل. ثم جاء البحث عن مكان للهبوط، ذلك الهبوط الذي تم أخيراً بمعونة الحبل، ووجدهم الليل مرة أخرى على النهر وقد قطعوا المسافة إلا ربع ميل أثناء النهار.

في الوقت الذي اجتازوا عنده الـ (هوتالنكوا) والثلج الجيد، كان (بك) قد نفدت طاقته. كانت بقية الكلاب في حال مشابهة، ولكن بيرو - لكي يعوض الوقت الضائع - كانٍ يدفعها متأخراً ومبكراً. في اليوم الأول قطعوا خمسة وثلاثينٍ ميلاً حتى الـ (بيغ سالمون)، وفي اليوم التالي خمسة وثلاثينٍ ميلاً أخرى حتى الـ (لتل سالمون)، وفي اليوم الثالث أربعين ميلاً جعلتهم يقتربون كثيراً من الـ (فايف منغرز).

لم تكن قوائم (بك) متماسكة وصلبة مثل قوائم الهوسكي. لقد نعمت قدماه خلال الأجيال العديدة منذ اليوم الذي تم فيه تدجين آخر أسلافه المتوحشين على يد ساكن كهوف أو رجل نهري. طيلة النهار كان يعرج في ألم مبرحٍ، وما أن يقام المخيم حتى يتمدد مثل كلب ميت. ورغم كونه جائعاً، فإنّه ما كان ليتحرك كي يحصل على حصته من السمك، فكان فرانسوا يضطر إلى حملها إليه. وكذلك، كان سائق الكلاب يفرك قوائم (بك) لمدة نصف ساعة كل ليلة بعد العشاء، ويضحي بنهاياتِ صنادله الخاصة ليصنع أربعة صنادل لـ (بك). وكان هذا علاجاً عظيماً، وقد جعل (بك) حتى الوجه الجاف لبيرو يلتوي في تكشيرة ذات صباح، عندما نسي فرانسوا الصنادل فتمدد (بك) على ظهره، وقوائمه الأربع تلوح متوسلة في الهواء، ورفض أن يتزحزح من دونها. وأخيراً تصلّبت رجله بالنسبة للطريق، فأطيح بجهاز الأرجل المهترئ بعيداً.

عند الـ (بيلي) ذات صباح، فيما كانوا يسرجون، جنت (دولي) -

التي لم يسبق أن جلبت حولها الشك في أي شيء – فجأة، وقد أعلنت عن حالتها بعواء ذئبي طويل يحطم القلب جعلت كل كلب يتخشب خوفاً. ثم قفزت باستقامة تريد (بك). لم يسبق له قط أن رأى كلباً ينسعر، كما أنه لم يكن لديه سبب قط ليخشى السعار، ومع ذلك فقد كان يعرف أن ثمة رعباً هنا، فهرب منه مفزوعاً. مستقيماً راح يتسابق، ودولي – اللاهثة المزبدة – وراءه بخطوة واحدة، وليس بمقدورها أن تلحق به، فكان رعبه عظيماً، ولم يكن بمقدوره أن يتركها تلحق به، فكان سعارها عظيماً. غاص (بك) عبر الصدر المشجر للجزيرة، وطار هابطاً إلى النهاية الدنيا، وعبر قنالاً مملوءاً بالثلج الخشن إلى جزيرة أخرى، وبلغ جزيرة ثالثة ثم انحنى عائداً إلى النهر الرئيسي، وفي يأس راح يعبره. وطوال الوقت، ومع أنه لم ينظر خلفه، كان يصل إلى مسامعه هريرها وراءه بنطة واحدة لا غير. ناداه فرانسوا على بعد ربع ميل فانطوى عائداً، ما يزال متقدماً بنطة واحدة فقط، لاهثاً بألم من أجل الهواء وواضعاً كل ثقته في أن فرانسوا سيخلّصه. أمسك سائق الكلاب الفأس منصوبة في يده، وما أن انطلق (بك) عابراً إياه حتى انسحقت الفأس هابطة فوق رأس دولي المجنون.

ترنح (بك) على الزلاجة، مرهقاً، منتحباً كي يلتقط نفساً، يائساً. كانت هذه فرصة سبتز. قفز على (بك)، ومرتين غاصت أنيابه في خصمه اللامقاوم، ونهشت ومزقت اللحم حتى العظم. ثم هبط سوط فرانسوا، وحصل (بك) على الرضا لرؤية سبتز ينال أسوأ جلد تلقّاه أي من أفراد الفريق حتى ذلك الحين. وعلّق بيرو:

– «شيطان، هذا السبتز. ذات يوم لعين سوف يقتل بك ذاك». فكان تعقيب فرانسوا:

– «ذلك الـ (بك) شيطانان. طول الوقت أنا أراقب ذلك البك أعرف ذلك مؤكداً.

اسمع: في يوم بديع لعين سيصاب بالسعار وحينذاك سوف يعلك ذلك السبتز كله ثم يبصقه لافظاً إياه على الجليد. مؤكد. أنا أعرف».

منذ ذلك الوقت، كانت حرب بينهما. كان سبتز، بوصفه الكلب القائد والسيد المعترف به للفريق، يحس تفوقه مهدداً من قبل كلب الجنوب الغريب هذا. وكان (بك) غريباً بالنسبة له، لأنه من بين كلاب الجنوب العديدة التي سبق أن عرفها، لم يبد أي واحد منها أية جدارة، سواء في المخيم أو على الطريق. كانت جميعها ناعمة جداً، تموت من الكد أو الصقيع أو الجوع. وكان (بك) هو الاستثناء، وحده تحمل ونما، موازياً الهوسكي قوة وتوحشاً وحذقاً. ثم أنه كان كلباً سيداً، وما جعله خطراً هو حقيقة أن هراوة الرجل ذي البلوزة الحمراء قد طردت منه كل الشجاعة العمياء واندفاع الرغبة في التسيّد. كان حذقاً فائقاً، وكان بمقدوره أن ينتظر حلول وقته بصبر لم يكن ليقل بشيء عن البدائية.

كان حتمياً أن يأتي النزاع من أجل القيادة، كان (بك) يريدها. أرادها لأنها كانت طبيعته، لأنه كان قد تشبث شديداً بذلك الفخر الذي لا يفهم، الذي لا اسم له، فخر الطريق والعنان – ذلك الفخر الذي يتملّك الكلاب في الكد حتى اللهثة الأخيرة، الكد الذي يجعلها تموت مبتهجة في أعنتها وتحطم قلوبها إن هي فكّت سروجها. كان هذا هو فخر ديف بوصفه كلباً دواراً، فخر سول ليكس فيما كان يجر بكل قوته، الفخر الذي تملّكهم عند تفكيك المخيم، محوّلاً إياهم من وحوش غاضبة وجافية إلى مخلوقات كادة كادحة، متلهِّفة، طموح الفخر الذي كان ينخسهم طوال النهار ويسقطهم في حفرة المخيم ليلاً، تاركاً إياهم يسقطون متداعين في لا راحة ولا رضا كئيبين. كان هذا هو الفخر الذي دعم سبتز وجعله يهزم تماماً كلاب الزلاجة التي كانت تحرن وتتملّص من الأعنة، أو كانت تختفي وقت السراجة صباحاً. وكذلك كان هذا هو الفخر الذي جعله يخشى (بك) بوصفه كلب قيادة محتملاً. وكان هذا هو فخر (بك)، أيضاً.

كان، بصراحة، يهدّد قيادة الآخر. وقف بينه وبين المتهربين الذين كان عليه أن يعاقبهم. وقد فعل ذلك عمداً. ذات ليلة، كان الثلج يسقط ثقيلاً، وفي الصباح لم يظهر بايك، المتمارض. كان

مختفياً بشكل أمين في عشه تحت قدم من الجليد. ناداه فرانسوا وبحث عنه من دون جدوى. وجن سبتز غضباً، انفلت عبر المخيم، متشمماً وحافراً في كل مكان محتمل، هاراً بشكل مخيف للغاية بحيث أن بايك سمعه فراح يرتجف في مخبئه.

ولكن، عندما كشفت عنه الأرض أخيراً، طار سبتز نحوه كي يعاقبه، طار (بك)، في غضب مماثل، ليقف بينهما. وكان ذلك لا متوقعاً جداً، وجرى بصورة شريرة جداً، بحيث أن سبتز اندفع متراجعاً مختل التوازن. انخلع فؤاد بايك، الذي كان يرتجف بوضاعة لهذا التمرّد المكشوف، فقفز هاجماً على زعيمه المخلوع. وقفز (بك) – الذي صار اللعب النزيه قانوناً منسياً بالنسبة له – هاجماً هو الآخر على سبتز. ولكن فرانسوا، الذي ضحك مع نفسه لهذه الحادثة لم يتوان في فرض العدل، وأنزل سوطه على (بك) بكل قوته. فشل هذا في إبعاد (بك) عن خصمه الملتصق بالأرض خنوعاً، فأدخل طرف السوط ليشارك في اللعبة. نصف مذهول من الضربة، تطوح (بك) إلى وراء وسقط السوط فوقه مرة أخرى وأخرى، في حين عاقب سبتز بايك الذي تجاوز عدة مرات.

في الأيام التي تلت، فيما كانت داوسون تقترب، كان (بك) لا يزال يتدخل بين سبتز ومن يتعرضون للعقاب، ولكنه كان يفعل ذلك بحذق، حين لم يكن فرانسوا هناك. بصوت (بك) الخفي، قفز وتزايد اللا خضوع العام. لم يتأثر ديف وسول ليكس، ولكن بقية الفريق انحدر من سيء إلى أسوأ. لم تعد الأمور تجري على نحو صحيح. كان ثمة تصارع وتشاجر دائمين. كانت المشاكل دائماً وشيكة، وفي أساسها كان يوجد (بك). كان يبقي فرانسوا مشغولاً، لأن سائق الكلاب كان في خوف دائم من صراع الحياة والموت بين الاثنين، وكان يعرف أنه لا بد واقع إن عاجلاً وإن آجلاً. وفي أكثر من ليلة كانت أصوات الشجار والصراع بين الكلاب الأخرى تضطره إلى خلع روب منامه، لخشيته من أن يكون (بك) وسبتز وراء ذلك.

ولكن الفرصة لم تتح، فانساقوا إلى داوسون ذات عصر كئيب والنزاع العظيم لما يقع، هنا كان رجال كثر، وكلاب لا تعد، وقد

وجدهم (بك) يعملون جميعاً. كان يبدو أن النظام المعين للأشياء هو أن تعمل الكلاب. طوال النهار كانت تتمخطر صاعدة الشارع الرئيس وهابطة إياه في فرق طويلة، وفي الليل كانت أجراسها القارعة لا تزال تصوت. كانت تجر جذوع الأكواخ وخشب الوقود، تنقل الأحمال إلى المناجم، وتقوم بكل أنواع الأعمال التي كانت الخيل تؤديها في وادي سانتا كلارا. وهنا وهناك كان (بك) يلتقي كلاباً جنوبية ولكنها على العموم كانت من سلالة الهوسكي الذئبية المتوحشة. وفي كل ليلة، بانتظام، في الساعة التاسعة، وفي الثانية عشرة، وفي الثالثة. كانت ترفع أغنية ليلية، شجو أشباح غريباً ومخيفاً، كان يسر (بك) أن يشارك فيه.

بإطلالة الفجر الشمالي الملتهبة ببرود فوق الرؤوس، أو بالنجوم المتقافزة في رقصة الصقيع، والأرض خدرة ومتجمدة تحت معطفها الجليدي السميك، ربما كانت أغنية الهوسكيات هذه ستصير تحدي الحياة، كل ما هنالك أنها كانت تنطلق بمفتاح أصغر، بانتخابات ممطوطة طويلاً. كانت تتوسل الحياة، الكد الناطق للوجود. كانت أغنية قديمة قدم السلالة نفسها – إحدى أوائل الأغنيات للعالم الفتي، في يوم صارت فيه الأغنيات حزينة. كانت ترجع صدى معاناة الأجيال التي لا تعد، هذه الشكوى التي بها استثير (بك) بشكل غريب. وعندما كان يشكو وينتحب، كان يقوم بذلك عبر ألم العيش الذي كان منذ القديم ألم آبائه المتوحشين، وخوف وغموض البرد والظلمة اللذين كانا لأولئك الآباء خوفاً وغموضاً. وأن يكون قد استثير بها فذلك ما كان إشارة إلى الاكتمال الذي به عاد عبر عصور النار والذرى إلى صف بدايات الحياة في عصور العواء.

بعد سبعة أيام من دخولهم داوسن هبطوا الضفة المنحدرة بمحاذاة الـ (باراكس) إلى الـ (يوكون تريل)، واتجهوا نحو الديار و (سولت ووتر). كان بيرو يأخذ منها رسائل لا تقل أهمية عن تلك التي يجلبها إليها، وكذلك، فقد تملّكه فخر السفر فنوى أن يقوم بسفرة العام القياسية. كانت لصالحه في هذا الشأن عدة أشياء. كان أسبوع الراحة

قد أعاد للكلاب صحتها ووضعها في نظام شامل. وكان الطريق الذي شقوه إلى داخل البلاد قد تصلّب بفعل السفرات اللاحقة. وإضافة إلى ذلك، كان رجال الشرطة قد أعدوا، في مكانين أو ثلاثة، مواقع لطعام الكلاب والرجال، فكان السفر خفيفاً.

بلغوا (سكستي مايل)، التي هي عبارة عن وثبة ستين ميلاً، في اليوم الأول، ووجدهم اليوم الثاني وهم يخفّون سراعاً عبر الـ(يوكون) بشكل جيد في طريقهم إلى (بيلي). ولكن مثل هذا الجرس الرائع لم يتحقّق من دون كبير إزعاج وإقلاق لفرانسوا. كان التمرّد الخفي الذي يقوده (بك) قد حطّم تضامن الفريق. لم يعد وكأنه كلب واحد ينط في الأعنة. كان التشجيع الذي أولاه (بك) للمتمردين قد أدّى بهم إلى كل أنواع الجنح الصغيرة. لم يعد سبتز قائداً يخشى كثيراً، لقد ذهبت المهابة القديمة، وتساووا جميعاً في تحدي سلطته. سرق منه بايك، ذات ليلة، نصف سمكة وابتلعها تحت حماية (بك). وفي ليلة أخرى قاتل دوب وجو سبتز وجعلاه يتغاضى عن العقاب الذي يستحقانه. وحتى بيلي، ذي الطبع الطيب، صار أقل طيبة، وصار يئن بأقل من نصف هدوء ما كان يئن في الأيام الخوالي. ولم يقترب (بك) من سبتز قط بدون أن يهر ويشد جسمه مهدّداً. وفي الحقيقة، كان سلوكه يقارب سلوك قاتل مأجور، وقد اعتاد أن يتبختر صاعداً نازلاً أمام أنف سبتز ذاته.

وقد أثّر انهيار الانضباط، بنفس الشكل، على علاقة الكلاب أحدهم بالآخر، صاروا يتشاجرون ويتنازعون أكثر من السابق فيما بينهم، حتى كان المخيّم يصير في بعض الأحيان دار مجانين نابحة عاوية. لم يتغير ديف وسول ليكس وحدهما، مع أنهما كانا يستثاران بالعراك الذي لا ينتهي. وأقسم فرانسوا أيماناً بربرية غريبة، ورفس الجليد هارساً إياه في سعار خائب، ومزّق شعره. كان كرباجه يغني دوماً بين الكلاب، ولكنه كان قليل الجدوى. ما إن كان يدير ظهره حتى كانوا يعودون لمشاكساتهم ثانية. وقد ساند سبتز بسوطه، في حين ساند (بك) بقية الفريق. كان فرانسوا يعرف

أنه وراء كل المشاكل، وكان (بك) يعرف أنه يعرف، ولكن (بك) كان أذكى كثيراً جداً من أن يقبض عليه متلبساً. كان يعمل بإخلاص وكدّ، لأن الكد كان قد صار بهجة له، ومع ذلك فقد كانت بهجة أشد خفاء من أن تعجل بقتال بين زملائه وتشابك للأعنة.

عند مدخل الـ (تاهكينا)، ذات ليلة بعد العشاء، طارد دوب أرنباً متزلجاً، على نحو أخرق، فأخطأه. خلال ثانية واحدة صار الفريق كله في صراخ كامل. على بعد مائة ياردة كان يقوم مخيم شرطة الشمال الغربي، ولديهم خمسون كلباً، جميعها من فصيلة الهوسكي. انضمت جميعاً للمطاردة. أسرع الأرنب نازلاً النهر، واستدار ليدخل ساقية صغيرة، صاعداً الحوض المتجمد الذي كانت تحوطه بانتظام. ركض بخفة فوق السطح الجليدي، في حين راحت الكلاب تحرثه بفعل القوة الرئيسة. وقاد (بك) القطيع، المكون من ستين كلباً قوياً، حول منحنى بعد منحنى، ولكن لم يتمكن من اللحاق. امتد خفيفاً للسباق، مهمهماً بلهفة، وجسده الرائع يومض إلى أمام، قفزة قفزة، في ضوء القمر الأبيض الشاحب، وقفزة قفزة، مثل شبح ضبابي شاحب ما، كان الأرنب المتزلج يومض متقدماً.

كل هيجان الغرائز القديمة ذاك، الذي يبعد الرجال – في فترات محددة – عن المدن الصاخبة، إلى الغاب والسهل، ليقتلوا الأشياء بكرات رصاصية يتم نفثها كيماوياً، شهوة الدم، متعة القتل، كل ذلك كان ملك (بك)، كل ما هنالك أن ذلك كان أكثر حميمية بما لا يقاس. كان يحتل مكان الصدارة أمام القطيع، راكضاً لينزل الشيء الوحشي إلى أسفل، اللحم الحي، ليقتل بأسنانه هو ويغسل بوزه حتى العينين بدم دافئ.

ثمة شبق يؤشر إلى قيمة الحياة، ووراءه لا يمكن أن تقوم حياة. هكذا هو نقيض العيش. ويجيء هذا الشبق عندما يكون المرء أكثر ما يكون حياة. هذا الشبق، نسيان العيش هذا، يجيء إلى الفنان، المسوك من نفسه وخارجها بحبل من لهب، ويجيء إلى الجندي، المجنون بالحرب على حقل مضروب والذي يرفض عفو العدو

المنتصر، وقد جاء إلى (بك)، وهو يقود القطيع، مطلقاً صرخة الذئب القديمة، جاهداً وراء الطعام الذي كان حياً والذي كان يفر بخفة أمامه عبر ضوء القمر. كان يردد صوت أعماق طبيعته، وتلك الأجزاء من طبيعته التي كانت أعمق منه، إذ تمتد إلى رحم الزمن. كان يتسيد عليه نبض الحياة الأجرد العارم، موجة الوجود المدية، المتعة الكاملة لكل عضلة منفصلة، لكل مفصل منفصل، وغضروف في كل ما هو غير الموت، كل ما هو مشع وعارم، يتجلى في الحركة، طائراً يقفز مرحاً تحت النجوم وعلى وجه الشيء الميت الذي لم يتحرك.

ولكن سبتز، الذي كان بارداً ومواظباً على الحساب حتى في أوج مزاجه، ترك القطيع وتوغل في رقبة ضيقة من الأرض حيث يقوم الجدول بانحناءة طويلة حولها. لم يكن (بك) يعرف بهذا، وفيما التف حول المنحنى، وإذ كان التمثال الجليدي للأرنب لا يزال يمرق أمامه، رأى تمثال جليد آخر وأكبر ينط من الضفة المرتفعة إلى الممر المباشر للأرنب، كان ذلك سبتز. لم يستطع الأرنب أن يلتفت، وفيما قضمت الأسنان البيضاء ظهره في الهواء، زعق بأعلى ما يمكن أن يزعق رجل مصاب. عند سماع هذا، نداء الحياة المنحدر من ذروة الحياة في قبضة الموت، رفع كل القطيع في أعقاب (بك) كورس ابتهاج جحيمياً.

لم يصرخ (بك). لم يقيد نفسه، وإنما حمل على سبتز، كتفاً لكتف، متصلباً جداً بحيث أنه أخطأ الحنجرة. تدحرجا وتدحرجا على الجليد المسحوق. سرعان ما انتصب سبتز على قدميه كما لو أنه - تقريباً - لم يتداع، ناهشاً (بك) من الكتف إلى أسفل وقافزاً يبتعد. انطبق فكاه مرتين، مثل فكي مصيدة فولاذيين، فيما تراجع مبتعداً ليحصل على نقطة وثوب أفضل، بشفتين نحيلتين ومرفوعتين كانتا تلتويان وتشتبكان.

في ومضة عرف (بك) الأمر. لقد حان الوقت. كان ذلك حتى الموت. وفيما استدارا ملتفين، هارين، آذانهما إلى وراء، مراقبين بحدة يتحينان الفرص، عاد المشهد إلى (بك) محملاً بإحساس من

الإلفة. بدا أنه يتذكر الأمر كله - الغابات البيض، الأرض، ضوء القمر، وانفعال المعركة. وفوق البياض والصمت خيّم هدوء شجي. لم تكن ثمة أخبى همسة هواء - لم يتحرك شيء، لم ترتعش ورقة شجر - كانت الأنفاس المرئية للكلاب ترتفع ببطء وتتباطأ في الهواء المتجمّد. كانوا قد تخلّصوا بسرعة من الأرنب الزحاف، هذه الكلاب التي كانت ذئاباً سيئة المؤالفة، وها هي الآن قد أنجزت متجمعة في دائرة منتظمة. كانت صامتة هي الأخرى، وعيونها لا تفعل غير أن تشع وأنفاسها غير أن تتحرك ببطء إلى أعلى. بالنسبة لـ (بك) لم يكن أمراً جديداً ولا غريباً، مشهد الأيام الخوالي ذاك. كان كما لو كان يجري دائماً، الطريقة المألوفة للأمور.

كان سبتز مقاتلاً مجرباً، من (سبتزبيرغن) عبر القطب، وعبر كندا و (البارنز)، كان قد تمرّس بكل حالات الكلاب وحقّق التسيد عليها. كان غضبه مريراً، ولكنه لم يكن معمياً قط، في اندفاع لأن يمزق ويدمر، لم ينس قط أن عدوه كان في اندفاع مشابه لأن يمزق ويحطم. لم يندفع قط حتى أنه كان مستعداً لتلقي اندفاع، ولم يهاجم حتى، كان يحمي أولاً ذلك الهجوم.

جهد (بك) دون جدوى أن يغرس أسنانه في عنق الكلب الأبيض الكبير. وحينما كانت أنيابه تضرب بحثاً عن اللحم الأطرى، كانت تقابلها أنياب سبتز. قرع الناب الناب، وكانت الشفاه متجرحة نازفة، ولكن (بك) لم يتمكّن أن ينفذ إلى تحوطات عدوه. ثم حمي واحتوى سبتز في دوامة من الاندفاعات. مرة أخرى حاول التمكن من الحنجرة البيضاء كالثلج، حيث كانت الحياة تترقرق قريبة من السطح، وفي كل مرة كان سبتز ينهش ويتخلص مبتعداً. ثم واصل (بك) الاندفاع - كما لو كان يستهدف الحنجرة، عندما أدار كتفه فجأة - وقد سحب رأسه إلى وراء منحنياً من الجانب - على كتف سبتز، كنعجة يراد الإطاحة بها. ولكن بدلاً من ذلك، كان كتف (بك) هو الذي ينهش كل مرة فيما كان سبتز ينط مبتعداً بخفة.

لم يتأثر سبتز، في حين كان (بك) مخضلاً دماً ويلهث بمشقة. كان القتال يزداد يأساً، وطوال الوقت كانت الدائرة الذئبية والصامتة

تنتظرِ الانتهاء كائناً من كان الكلب الذي يسقط. وفيما ازداد (بك) التفاتاً، اتجه سبتز إلى الاندفاع، فجعله يتعثر كي يبقى على قدميه. ما أن انقلب (بك)، حتى هبت كل دائرة الستين كلباً، ولكنه سرعان ما استعاد وضعه، في الهواء تقريباً، فغاصت الدائرة مرة أخرى وراحت تنتظر.

ولكن (بك) كان يمتلك خاصية تعوض عن الضخامة: الخيالِ. كان يقاتل بالغريزة، ولكن كان بمقدوره أن يقاتل برأسه أيضاً. اندفع، كما لو كان يحاول اللجوء إلى حيلة الكتف القديمة، ولكن في اللحظة الأخيرة اندفع منخفضاً يكنس الجليد ويغوص فيه. انطبقت أسنانه على قائمة سبتز الأمامية اليسرى. كانت ثمة طقطقة عظم منكسر، فواجهه الكلب الأبيض بثلاثة قوائم. ثلاث مرات حاول أن يطيح به، ثم كرّر الحيلة فكسر القائمة الأمامية اليمنى. ورغم الألم واليأس، كافح سبتز بجنون كي يبقى واقفاً. كان قد رأى الدائرة الصامتة، ذات العيون المشعة، والألسن المدلاة، والأنفاس الفضية المتصاعدة إلى أعلى، تضيق حوله، كما سبق له أن رأى دوائر أخرى تنضم على خصوم مهزومين في الماضي. كل ما هنالك أنه هو المهزوم هذه المرة.

لم يكن ثمة أمل له. كان (بك) لا ينثني. كانت الرحمة شيئاً محفوظاً للأجواء الأكثر رقة. ناور من أجل الاندفاعة الأخيرة. كانت الدائرة قد ضاقت حتى صار بمقدوره أن يحس أنفاس كلاب الهوسكي حول أطرافه. كان بمقدوره أن يراها، خلف سبتز وإلى كل من الجانبين، نصف مقرفصة استعداداً للوثوب، وعيونها مثبتة عليه. بدا أن توقفاً سيحل. كان كل حيوان عديم الحركة كما لو أنه استحال حجراً. سبتز وحده ارتعش وانتصب فيما كان يتعثر إلى وراء وإلى أمام، هاراً بتهديد مرعب، كما لو ليخيف الموت الوشيك. ثم قفز (بك) إلى الداخل والخارج، ولكن فيما كان داخلاً كانت كتف قد قابلت كتفاً، مباشرة، أخيراً. أصبحت الدائرة المعتمة نقطة فوق الجليد المغطى بضوء القمر فيما اختفى سبتز عن الأنظار. وقف (بك) وتطلع إلى أمام، البطل الناجح، الوحش الأزلي المسيطر الذي حقق قتله ووجده جيداً.

٤- من كسب ليسود

- إيه، ماذا أقول؟ أنا أتكلم صدقاً عندما أقول (بك) ذاك شيطاناً».

كان ذلك خطاب فرانسوا في الصباح التالي عندما اكتشف سبتز ناقصاً و(بك) مغطى بالجراح. قاده إلى النار وأشار إلى الجروح على ضوء النار.

قال بيرو، فيما كان يستطلع المزق والجروح الفاغرة:

- «وذلك سبتز يحارب كالجحيم». فكان جواب فرانسوا:

- «وذلك (بك) يحارب مثل جحيمين. والآن ستوفر الوقت. لم يعد هناك سبتز، فليس هناك مزيد من المشاكل، أكيد».

فيما حزم بيرو معدات المخيم وشحن الزحافة، انطلق سائق الكلاب ليسرج الكلاب. خف (بك) إلى المكان الذي كان سيشغله سبتز، ولكن فرانسوا، إذ لم يلاحظه، جلب سول ليكس إلى المركز المرغوب بحرارة، إذ كان سول ليكس - حسب تقديره - أحسن كلب قائد مما تبقى. قفز (بك) على سول ليكس في غضب مسعور، دافعاً إياه إلى وراء وواقفاً في مكانه.

- «ايه؟ ايه؟»، صرخ فرانسوا، وهو يصفع فخذيه بانشراح.

- «انظر إلى ذاك (بك). وهو يقتل ذاك سبتز، هو يفكر أن يأخذ العمل»، ثم صرخ:

- «ابعد، يا وقح!»، ولكن (بك) رفض أن يتزحزح.

امسك فرانسوا، (بك) من نقرة العنق، ومع أن الكلب هر مهدداً، إلا أنه جرّه جانباً ووضع سول ليكس محلّه. لم يحب الكلب العجوز ذلك. وبان بوضوح أنه يخشى (بك). كان فرانسوا عنيداً متعنتاً، ولكن عندما أدار ظهره، كان (بك) قد حلّ ثانية محل سول ليكس،

الذي لم يكن قط غير راغب في الانصراف. غضب فرانسوا، فصرخ:

– الآن، بحق الله، سأعالجك!»، وعاد وفي يده هراوة ثقيلة.

تذكر (بك) الرجل ذا البلوزة الحمراء، فتراجع ببطء، كما أنه لم يحاول أن يهجم عندما جيء بسول ليكس مرة أخرى إلى أمام. ولكنه أخذ يدور حوله خارج مدى الهراوة بالضبط، هاراً بمرارة وغضب، وفيما كان يدور راح يراقب الهراوة كما لو ليتخلص منها أو يرميها فرانسوا، لأنه كان قد صار عاقلاً فيما يتعلق بالهراوة.

ذهب السائق ليعالج شؤونه، ثم نادى (بك)، عندما استعد، ليضعه في مكانه القديم أمام ديف. تراجع (بك) خطوتين أو ثلاثاً. لاحقه فرانسوا، مما جعله يتراجع أكثر. بعد وقت قصير من هذا، رمى فرانسوا الهراوة جانباً، معتقداً أن (بك) كان يخشى علقة. ولكن (بك) كان في تمرّد صريح، كان يريد – لا أن يتخلص من ضرب الهراوة، بل – أن يحصل على القيادة. كانت له بفعل الحق. كان قد استحقها بجدارة، وما كان ليرضى بأقل منها.

اشترك بيرو. وجعلاه يركض بينهما ساعة تقريباً. رميا هراوات عليه. راوغ متخلصاً. شتماه، وشتما آباءه وأمهاته من قبل، وكلّ نسله الذي سيأتي بعده حتى أبعد جيل، وكل شعرة على جسده وقطرة دم في عروقه، فكان يرد على الشتيمة بالهرير ويبقى بعيداً عن منالهما. لم يحاول أن يهرب، بل كان يتراجع حوله وحول المخيم، معلناً بشكل مكشوف أنه، عندما تتحقق رغبته، سيعود ويصير صالحاً.

جلس فرانسوا وحك رأسه. ونظر بيرو إلى ساعته فأخذ يجدف. كان الوقت يطير، وكان يجب أن يكونوا على الطريق قبل ساعة. حك فرانسوا رأسه ثانية. حكّه وكشّر في خجل بوجه المراسل، الذي هز كتفيه إشارة إلى أنهما قد فشلا. ثم ذهب فرانسوا إلى حيث كان يقف سول ليكس، ونادى (بك). ضحك (بك)، كما تضحك الكلاب،

ومع ذلك بقي مبتعداً لحد ما. حل فرانسوا عنان سول ليكس وأعاده إلى مكانه الأول. كان الفريق يقف مسرجاً إلى الزحافة في خط غير منفصم، جاهزاً للطريق. لم يكن ثمة مكان لـ (بك) إلا في المقدمة. ومرة أخرى نادى فرانسوا، ومرة أخرى ضحك (بك) وبقي بعيداً.

– «ارم الهراوة»، أمر بيرو.

استجاب فرانسوا، مما جعل (بك) يقترب مسرعاً، ضاحكاً بانتصار، واستدار إلى موقعه على رأس الفريق. كان عنانه قد ثبت، والزحافة قد أخرجت من الثلج الذي تجمّد عليها، وإذ كان الرجلان قد بدآ يركضان فقد انطلقوا ليدخلوا طريق النهر.

كما سبق لسائق الكلاب أن نعت (بك) عالياً، بالشيطان، وجد أنه قد أنقص من قيمته – والنهار لا زال فتياً. بلمحة واحدة أخذ (بك) واجبات القيادة، وحيثما كان الحكم مطلوباً، وكذلك التفكير السريع والعمل السريع، كان يعرض نفسه متفوقاً حتى على سبتز، الذي لم يسبق لفرانسوا أن رأى نداً له قط.

ولكن (بك) كان يتفوق في إصدار القانون وجعل زملائه ينفّذونه. لم يبالِ ديف وسول ليكس بتبدّل القيادة. لم يكن ذلك من شأنهما. كان واجبهما أن يكدا وأن يكدحا إلى حد كبير في الأعنة. وما دام ذلك لا تجري مقاطعته، فإنهما ما كانا ليباليان بما يقع. كان يمكن لبيلي – الطيب – أن يقود، قدر تعلق الأمر بهما، ما دام بمقدوره أن يحفظ النظام. وعلى كل حال، فقد صار بقية أفراد الفريق صعبي المراس خلال أيام سبتز الأخيرة، واشتدت دهشتهم عندما انطلق (بك) يعيدهم إلى وضعهم الطبيعي.

كان بايك، الذي يجر في أعقاب (بك)، والذي لم يكن ليحمل ولا أونصة واحدة على حزام الصدر أكثر مما كان مضطراً لأن يحمل، كان يهتز بخفة وتكرار للكسل. وقبل أن يكون اليوم الأول قد انتهى، فإنه كان يجر أكثر مما سبق له أن جر في حياته. وفي الليلة الأولى بالمخيم، عوقب جو، الغاضب، بقسوة – وذلك أمر

لم ينجح سبتز في فعله قط. لقد كتم (بك) أنفاسه، ببساطة، بفضل تفوق الوزن، وراح يجرحه حتى توقف عن النهش وبدأ يُهَمهم طلباً للرحمة.

سرعان ما استعيد الإيقاع العام للفريق. استعاد تضامنه القديم، وعادت الكلاب تنط جميعاً مثل كلب واحد في الأعنة. وعند الـ(رنك رابيدس)، أضيف هوسكيان من المنطقة، هما (تيك) و (كونا)، إلى الفريق، وكان الاحتفاء الذي به أدخلهما (بك) قد خطف أنفاس فرانسوا، فصرخ:

– «أبداً لم أرَ مثل هذا كلب (بك)! لا، أبداً، هو يستحق ألف دولار، والله! ايه، ماذا تقول يا بيرو؟».

فهز بيرو رأسه موافقاً. كان قد سبق الرقم القياسي للسرعة الآن، وكان يكسب المزيد يوماً بعد يوم. كان الطريق في حال ممتازة، جيد التماسك وصلباً. ولم يكن ثمة ثلج حديث السقوط تنبغي مجاهدته. لم يكن الطقس شديد البرودة. وقد هبطت درجة الحرارة إلى خمسين تحت الصفر وبقيت عند هذا الحد طيلة السفرة. كان الرجلان أحدهما يركض والآخر يركب بالتناوب، وأبقيا الكلاب متحرِّكة، فيما عدا توقفات معدودة.

كان نهر الـ (ثرتي مايل) مكسواً نسبياً بالجليد، وقد اجتازوا في خروجهم ليوم واحد ما كان يستغرق منهم عشرة أيام في الدخول. وفي انطلاقة واحدة من أسفل بحيرة (ليبارج) إلى (وايت هورس رابيدس). وعبر (مارش) و (تاغيش) و (بينيت) – على مبعدة سبعين ميلاً من البحيرات – طاروا بسرعة فائقة بحيث أن الرجل الذي كانت نوبته في الركض قد قطر إلى الزحافة بطرف حبل. وفي الليلة الأخيرة من الأسبوع الثاني اجتازوا الـ (وايت باث) وهبطوا منحدر البحر جاعلين أضواء (سكاغواي) وأرصفة الموانئ تحت أقدامهم.

كان جرياً قياسياً. كل يوم من أربعة عشر يوماً قطعوا أربعين ميلاً

في المعدل. وطيلة ثلاثة أيام كان بيرو وفرانسوا يوجهان الصدور إلى أعلى الشارع الرئيس لسكاغواي وأسفله، وقد أمطرا بدعوات الشراب، في حين صار الفريق المركز الدائم لحشد متعبد من محبي الكلاب وسواقها. ثم طاب لثلاثة رجالٍ أشرارٍ أو أربعة أن يسلبوا المدينة فثقبوا مثل علب البهارات جزءاً وفاقاً، فانحرف الاهتمام الشعبي إلى رموز أخرى. وبعدئذ جاءت أوامر رسمية. استدعى فرانسوا (بك) إليه، ورمى ذراعيه حوله، وبكى على فراقه. وكان ذلك آخر ما رآه من فرانسوا وبيرو. مثل غيرهما من الرجال، خرجا من حياة (بك) إلى الأبد.

تولى اسكوتلندي خلاسي مسؤولية رفاقه، وإلى جانب دزينة من فرق الكلاب الأخرى بدأ العودةَ فوق الطريق المتعب إلى داوسن. لم يكن الآن ركضاً هيناً، ولا وقتاً قياسياً، وإنما كدح شاق كل يوم، ووراءه حمل ثقيل، لأن هذه كانت قافلة البريد، تحمل الكلمة من العالم إلى الرجال الذين كانوا يبحثون عن الذهب تحت ظلال القطب.

لم يحب (بك) ذلك، ولكنه كان عوناً جيداً للعمل، مفتخراً به على طريقة ديف وسول ليكس، ولأنه رأى رفاقه – سواء كانوا يفخرون بالعمل أم لا – يؤدون قسطهم. كانت حياة مملة، تمضي برتابة كرتابة الماكنة. كان كل يوم يشبه الآخر كثيراً، ففي وقت معين من كل صباح كان الطهاة يخرجون وتقام النار ويجري تناول الفطور. ثم، فيما كان البعض يفكون المخيم، كان آخرون يسرجون الكلاب، وكانوا يحلون على الطريق قبل أن يهبط الظلام، بساعة أو نحوها، الظلام الذي كان ينذر بحلول الفجر. وفي الليل، كان يقام المخيم. كان بعضهم يقيم الطيات، ويقطع غيرهم خشب الوقود وجذوع الصنوبر الغليظة لاعداد الأسرة، في حين كان آخرون غيرهم يحملون الماء أو الثلج للطباخين. وكذلك، كان يجري إطعام الكلاب. بالنسبة لها، كان هذا العمل سمة اليوم الوحيدة، مع أنه كان حسناً أن يتسكع الواحد، بعد أكل السمك، لمدة ساعة أو نحوها مع الكلاب الأخرى، التي كان ثمة منها مائة وواحد. كان ثمة بينها

مقاتلون صلبون، ولكن ثلاث معارك مع أضراها حققت لـ (بك) التسيد، بحيث أنها – عندما كان ينتصب ويكشر عن أنيابه – كانت تبتعد عن طريقه.

أكثر من كل شيء، ربما، كان يحب أن يتمدد قريباً من النار، وساقاه الخلفيتان مثنيتان تحته، وساقاه الأماميتان ممدودتان إلى أمام، والرأس مرفوع، والعينان ترمشان حالمتين نحو اللهب. وأحياناً كان يفكر في بيت القاضي ميلر الفسيح في وادي سانتا كلارا الذي تقبله الشمس، في حوض السباحة الخرساني، في ايزابيل: الجرداء المكسيكية، وتوتس: الـ (بغ)[٣] اليابانية، ولكنه كان يتذكر أكثر الرجل ذا البلوزة الحمراء، موت كيرلي، الصراع العظيم مع سبتز، والأشياء الجيدة التي أكلها أو يود لو كان أكلها، لم يعان شعوراً بالحنين إلى الوطن. كان الـ (سانلاند) معتماً وبعيداً للغاية، ولم تكن لذكريات كهذه قوة عليه. وكانت أكثر قوة ذكريات وراثته التي تمنحه أشياء لم يسبق له أن رآها من قبل، ألفة واضحة، والغرائز (التي لم تكن غير ذكريات أسلافه التي استحالت عادات) التي خبت في الأيام الأخيرة، والتي – مع ذلك – تسارعت فيه وتجدّدت حياتها فيه.

أحياناً، فيما كان يقعي هناك، رامشاً حالماً في اللهب، كان يبدو أن اللهب ينبعث من نار أخرى، وأنه – فيما كان يقعي عند هذه النار الأخرى – رأى رجلاً آخر يختلف عن الطباخ الخلاسي الذي كان أمامه. كان هذا الرجل الآخر أقصر ساقين وأطول ذراعين، وله عضلات شريطية متتالية ومعقدة أكثر منها مدورة مكورة. كان شعر هذا الرجل طويلاً ومتشابكاً حد الحياكة، وكان رأسه مائلاً إلى وراء تحت شعره من العينين. نطق أصواتاً غريبة، وكان يبدو خائفاً جداً من الظلام، الذي كان يتطلع فيه باستمرار، ممسكاً في قبضته،

---

(٣) فصيلة كلاب صغيرة الحجم قصيرة الشعر ملوية الذيل مغضنة الوجه خنساء الأنف.

التي كانت تتعلق في منتصف الطريق بين ركبته وساقه، بعصاً تحمل حجراً ثقيلاً مثبتاً في نهايتها. يكاد يكون عارياً، والجلد الرث الذي لوّحته النار يتدلّى مفروقاً على ظهره، ولكن على جسده كان ثمة شعر كثيف. في أماكن معينة، عبر الصدر والكتفين وأسفل، خارج الذراعين والفخذين. كان ينحاك ليصير فراء كثاً تقريباً. لم يكن يقف منتصباً، ولكن بجذع مال إلى أمام من الوركين، على ساقين تنحنيان عند الركبتين. وحول جسده كانت ثمة مطاطية غريبة، أو قابلية غريبة، تكاد تكون خاصة بالقطط، وتيقظ سريع كتيقظ من يعيش في خوف دائم من الأشياء المرئية وغير المرئية.

في أوقات أخرى كان هذا الرجل يقعي عند النار ورأسه بين ساقيه فينام. وفي مثل هذه الحالات كان مرفقاه على ركبته، ويداه مضمومتان على رأسه كما لو ليمطر من الذراعين المشعرتين. ووراء تلك النار، في الظلمة المحيطة، كان بمقدور (بك) أن يرى عدة جمرات مشعة، اثنتين اثنتين، دائماً اثنتين اثنتين، كان يعرف أنها أعين وحوش كواسر عظيمة. وكان بمقدوره أن يسمع انسحاق أجسادها عبر الأجمة، والأصوات التي كانت تحدثها في الليل. وإذ كان يحلم هناك عند ضفة الـ (يوكون)، بعينين كسولتين ترمشان نحو النار، كانت أصوات ومشاهد العالم الآخر هذه تجعل الشعر يقف على ظهره بطوله ويقف على أطرافه عبر كتفيه وفوق رقبته، إلى أن يهمهم خفيضاً ومكتوماً، أو ينبح بنعومة، فيصرخ نحوه الطباخ الخلاسي: «هي، أنت يا (بك)، استيقظ!»، حيث كان العالم الآخر يتلاشى ويتجسد العالم الحقيقي لناظريه، وعندئذ كان ينهض ويتثاءب ويتمطى كما لو أنه كان نائماً.

كانت رحلة صعبة، والبريد وراءهم، والعمل الشاق يهرئهم. كانوا قد فقدوا الكثير من أوزانهم، وغدوا في أردأ حال، ثم وصلوا داوسن، وكان لا بد لهم أن ينالوا استراحة أمدها عشرة أيام أو أسبوع على الأقل. ولكن خلال يومين هبطوا ضفة اليوكون من الـ (باراكس)، محملين برسائل إلى الخارج. كانت الكلاب متعبة،

والسائقون يزمجرون، ولكي تزداد الأمور سوءاً، كانت السماء تثلج في كل يوم. كان هذا يعني طريقاً هشاً، وجهداً أعظم على الراكضين، وجراً أشق على الكلاب، ومع ذلك كان السائقون منصفين أثناء الأمر كله، وقد فعلوا خير ما يمكنهم للحيوانات.

كل ليلة، كانت تجري العناية بالكلاب أولاً. كانت تأكل قبل أن يأكل السائقون، وما كان أي رجل ليبحث عن رداء نومه قبل أن يكون قد انتهى من فحص أقدام الكلاب التي كان يقودها. ومع ذلك، انهارت قواها. منذ بداية الشتاء كانت قد قطعت ألفاً وثمانمائة ميل، ساحبة زلاجات على طول تلك المسافة المضنية. وإن ألفاً وثمانمائة ميل لتخبرك من الحياة عن أشقها. تحمّلها (بك)، رافعاً معنويات زملائه إلى مستوى العمل ومحافظاً على الانضباط، مع أنه هو نفسه كان متعباً جداً. كان بيلي يبكي ويهمهم بانتظام في نومه كل ليلة. وكان جو أشد مرارة منه في أي وقت، أما سول ليكس فكان لا يطاق، سواء من جانبه الأعمى أو من الجانب الآخر.

ولكن ديف هو الذي عانى أكثر الجميع. كان شيء مما يخصّه قد أصابه الخطأ. كان قد صار أكثر هماً واستعداداً للاستثارة، وما أن كان المعسكر يقام حتى كان يصنع عشه، حيث كان سائقه يطعمه، ما أن كان يتحرر من السرج، ويهبط، حتى كان لا يقف على قدميه ثانية إلى وقت الاسراج في الصباح التالي. وفي بعض الأحيان، في الأعنة، عندما كان ينشمر بتوقف الزلاجة المفاجئ، أو بالشد لتحريكها، كان يبكي ألماً. كان السائق يفحصه، ولكن لم يكن يتمكن من العثور على شيء. وقد اهتم كل السائقين بالحالة. كانوا يتحدثون عنها أوقات الطعام، وعندما يدخنون آخر غلايينهم قبل الاخلاد إلى الفراش. ذات ليلة عقدوا جلسة استشارية: جلب من عشه إلى النار، وتم الضغط عليه وسبره حتى صرخ عدة مرات. كان شيء ما على غير وضعه في الداخل، ولكن لم يكن بمقدورهم أن يشخصوا عظاماً مكسورة. لم يكن بمقدورهم أن يكتشفوا ذلك الشيء.

عندما تم بلوغ (كاسيار بار)، كان من الضعف بحيث أنه كان

يتداعى باستمرار على الأعنة. أوعز الاسكتلندي الخلاسي بالوقوف وأخرجه من الفريق، رابطاً الكلب التالي، سول ليكس، إلى الزلاجة. كان قصده أن يريح (ديف)، تاركاً إياه يركض خلف الزلاجة. ومع أن ديف كان مريضاً إلى ذلك الحد، فقد استشم أنه يراد إخراجه، فراح يعوي ويطحن أسنانه فيما كان يجري فك الأعنة، ويهمهم بقلب كسير فيما يرى سول ليكس في المركز الذي طالما أحرزه وخدم فيه هو. لأن فخر الأعنة والطريق كان فخره، ورغم أنه كان مريضاً بحيث بلغ شفير الموت فإنه لم يتحمّل أن يقوم كلب آخر بعمله.

عندما بدأت الزلاجة تتحرّك، تعثر زالقاً في الجليد الناعم على طول الطريق المخفوق، مهاجماً سول ليكس بأسنانه، مندفعاً ضده ومحاولاً أن يدفعه بعيداً إلى الجليد الناعم على الجانب الآخر، مكافحاً أن يقفز إلى داخل أعنته وأن يصير بينه وبين الزلاجة، وكان طوال الوقت يئن ويستجير ويصرخ بحزن وألم. حاول الخلاسي أن يبعده بالسوط، ولكنه لم يبال بالجلد الموجع، ولم يكن قلب الرجل ليطاوعه أن يضرب أشد. رفض ديف أن يجري بهدوء على الطريق وراء الزلاجة، حيث كان المسير هيناً، ولكنه واصل التخبط على طول الجليد الناعم، حيث كان المسير أشد ما يكون صعوبة، حتى الاجهاد. ثم هوى، وتمدد حيث هوى، عاوياً بألم مرير فيما كان قطار الزلاجات الطويل يجتازه مضطرباً.

بالثمالة الأخيرة من قوّته تمكن أن يتابعهم متعثراً حتى توقف القطار ثانية، حيث تخبط عبر الزلاجات إلى زلاجته، ووقف إلى جانب سول ليكس. تلكأ سائقه لحظة كي يهيئ النار لغليونه من الرجل الذي كان وراءه. ثم استدار وحرّك كلابه. انسابت على الطريق بافتقار ملحوظ للاندفاع، ولفتت رؤوسها بعسر، ثم توقفت مندهشة. كان السائق مندهشاً أيضاً: لم تتحرك الزلاجة. نادى على رفاقه كي يشهدوا المنظر: كان ديف قد عض على عناني سول ليكس الاثنين، وكان يقف مباشرة أمام الزلاجة في مكانه الخاص.

توسل بعينيه أن يبقى هناك. تحير السائق. تحدث رفاقه عن كيفية تحطيم الكلب لقلبه حين يحرم من العمل الذي يقتله، وتذكروا أمثلة كانوا يعرفونها، عن كلاب ماتت – بعد إذ هرمت بحيث لم تكن تقوى على الكد، أو أصيبت فلم تعد تقوى عليه – لأنها حلت من الأعنة، وكذلك، فقد اعتبروا أن من الشفقة – ما دام دايف سيموت على أية حال – أن يموت في الأعنة، رضي القلب قانعاً. وهكذا، فقد أسرج ثانية، وبفخر راح يجر كما في السابق، مع أنه بكى أكثر من مرة، دون إرادة، من عضة ألمه الباطني. وتهاوى عدة مرات وراح يجر في الأعنة، وذات مرة داسته الزلاجة، بحيث صار يعرج بعد ذلك من إحدى ساقيه.

ولكنه تماسك حتى تم بلوغ المخيم، حيث أعد له سائقه مكاناً قرب النار. طلع عليه الصباح فوجده السائق أضعف من أن يسافر. وعند حلول وقت الإسراج حاول أن يزحف إلى سائقه. وبجهود مضنية نهض على قوائمه، تعثر ثم هوى. ثم زحف كالدودة إلى أمام ببطء إلى حيث كانت معدات السراجة توضع على زملائه. كان يقدم قائمتيه الأماميتين ويسحب بدنه بنوعٍ من الحركة المتقطعة، حيث كان يقدمِ قائمتيه الأماميتين وينط قدماً مرة أخرى لمزيد منٍ البوصات. تخلّت عنه قواه، وآخر ما رأى منه زملاؤه كونه ممدداً فاغراً فاه على الثلج يصرخ نحوهم بحزن. ولكن بقي بمقدورهم أن يسمعوه يعوي بأسى حتى أصبحوا خارج مدى البصر وراء حزام من خشب النهر.

هنا توقف القطار. وعاد الاسكتلندي الخلاسي أدراجه ببطء إلى المعسكر الذي تركوه. كف الرجال عن الكلام. دوت إطلاقة مسدس. عاد الرجل مسرعاً. فرقعت السياط، وخشخشت الأحزمة بابتهاج، واهتزت الزلاجات على طول الطريق، ولكن (بك) عرف، وعرف كل كلب، ما جرى خلف نطاق الأشجار النهرية.

٥ – كد العنان والطريق

بعد ثلاثين يوماً من مغادرة بريد (سلت واتر) لداوسن، وفي مقدمته (بك) وزملاؤه، وصل إلى سكاغواي. كانت القافلة في أسوأ حال، ممزقة رثة نال منها البلى أي منال. وقد تضاءلت أرطال (بك) المائة والأربعون إلى مائة وخمسة عشر. وكان بقية زملائه، مع أنهم كانوا كلاباً أخف وزناً، قد فقدوا وزناً أكثر منه نسبياً. فبايك، المتمارض، الذي غالباً ما لفق بنجاح – أثناء حياته المخادعة – ساقا موجعة، كان الآن يعرج بلهفة. وكان (سول ليكس) يعرج، ودوب يعاني من عظم كتف مرضوض.

كانوا جميعاً يعانون من تقرح الأقدام. لم تبق فيهم إمكانية قفزة أو خفقة. كانت أقدامهم تتساقط بتثاقل على الطريق، شالة أبدانهم ومضاعفة إجهاد يوم كامل. لم يكن بهم شيء غير أنهم كانوا متعبين حتى الموت. لم يكن التعب المميت الذي يتأتى عبر الجهد المختصر والفائق، والذي يكون الشفاء منه مسألة ساعات، ولكنه كان التعب المميت الذي يتأتى عبر النزف البطيء والمتطاول للقوة، والذي يجري طيلة شهور من الكد. لم تكن ثمة قوة معافاة قد تبقت، ولا قوة احتياطية تستدعي. فقد استعملت كلها، آخر ثمالة متخلفة منها – كانت كل عضلة، كل نسيج حي، كل خلية، متعبة، متعبة حتى الموت. وكان لذلك ما يبرّره. ففي أقل من خمسة أشهر كانوا قد سافروا ألفين وخمسمائة ميل، لم يستريحوا – أثناء الألف والثمانمئة ميل الأخيرة منها – أكثر من خمسة أيام. وعندما بلغوا سكاغواي، كان واضحاً أنهم في الرمق الأخير. كانوا بالكاد يبقون على الأعنة مشدودة، وعلى الطرق المنحدرة كانوا بالكاد يتمكنون من الابتعاد عن طريق الزلاجة.

– «تقدّمي، أيتها الأقدام المسكينة الموجوعة». هكذا كان السائق يشجعهم فيما كانوا يتعثّرون هابطين شارع سكاغواي الرئيس.

– «هذا هو الأخير. ثم سننال راحة واحدة طويلة. ها؟ مؤكد. راحة طويلة فاخرة».

كان السائقون يتوقعون – بثقة – توقفا طويلاً. فهم أنفسهم قطعوا ألفاً ومائتي ميل دون أن يستريحوا أكثر من يومين، وبحكم العقل والإنصاف كانوا يستحقون توقفاً متطاول الأمد. ولكن الرجال الذين اندفعوا إلى الكلونديايك كانوا من الكثرة، وكانت الحبيبات والزوجات والأقارب اللاتي، والذين، لم يندفعن، أو يندفعوا، من الكثرة بحيث أن البريد المحشور كان يكتسب أبعاداً عملاقة. وكذلك فقد كانت ثمة أوامر رسمية. كانت وجبات طازجة من كلاب خليج هدسون قد جيء بها كي تحل محل الكلاب التي لم تكن جديرة بالأعنة. كان المقرر أن يتم التخلص من غير اللائقة، وبما أن الكلاب كانت أقل قيمة من الدولارات، فقد كان المفروض أن تباع.

مرت ثلاثة أيامٍ، اكتشف (بك) وزملاؤه أثناءها كم كانوا متعبين وضعفاء حقاً. ثم، في صباح اليوم الرابع، جاء رجلان من الولايات المتحدة واشترياهم، بسراجتهم، لقاء ثمن بخس. كان الرجلان يخاطبان بعضهما بـ (هال) و (تشارلز). كان تشارلز في منتصف العمر، خفيف اللون، له عينان ضعيفتان دامعتانِ وشاربان معقوفان بقوة وحيوية إلى أعلى، مضفياً مظهراً كاذباً على الشفة المتهدلة بارتخاء، التي كان يخفيها. وكانٍ هال فتى في التاسعة عشرة أو العشرين، يحمل مسدس (كولت) كبيراً وسكين صيادين في نطاقٍ يلمع مما يحمل من إطلاقات. كان هذا النطاق الشيء الأكثر بروزاً فيه: كان يعلن عن فجاجته ولا خبرته، فجاجة خالصة لا تصدق. كان واضحاً جداً أن الرجلين في غير مكانهما، وأن قيام رجلين مثلهما بالمغامرة في الشمال جزء من غموض الأشياء التي تمر دون أن يفهمها أحد.

سمع (بك) المساومة، ورأى المال ينتقل بين الرجل ووكيل الحكومة، فعرف أن الاسكتلندي الخلاسي وسواق قطار البريد كانوا يخرجون من حياته في أعقاب بيرو وفرانسوا والآخرين الذين رحلوا من قبل. وعندما سيق مع زملائه إلى مخيم المالكين الجدد، رأى (بك) شأناً فوضوياً ولا يدل على أدنى عناية، خيمة نصف منصوبة، صحوناً غير مغسولة، كل شيء في فوضى، وكذلك فقد رأى امرأة. كان الرجلان يسميانها (مرسيدس)، كانت زوجة تشارلز وأخت هال – جماعة عائلية لطيفة.

راقبهم (بك) بتفهّم عندما شرعوا يفكّون الخيمة ويحملون الزلاجة. كانت حالهم توحي بأنّ ثمة الكثير من الجهد الذي ينبغي صرفه، ولكنها لم تكن توحي قط بما يشبه العمل. تم طي الخيمة في رزمة خرقاء أكبر مما ينبغي بثلاث مرات. وتم رزم أطباق الصفيح دون غسيل. وكانت مرسيدس تتحرّك منحشرة باستمرار في طريق الرجلين فيما استمرت في ثرثرة لا نهاية لها، هداية ونصحاً، فعندما وضعا كيس ثياب على مقدمة الزلاجة، اقترحت أن ينقل إلى المؤخرة، وعندما وضعاه على المؤخرة، وغطياه برزمتين أخريين، اكتشفت أشياء منسية ما كان ليسعها مكان آخر غير ذلك الكيس، فأنزلاه ثانية.

خرج ثلاثة رجال من خيمة مجاورة وتطلّعوا، مكشّرين، وأحدهم يغمز للآخر. ثم قال أحدهم:

– «إن لديكم حملاً جميلاً تماماً كما هو. ولست أنا من يقول لكم ما تفعلون، ولكني ما كنت لأهتم بتلك الخيمة لو كنت مكانكم»، فصرخت مرسيدس، وهي ترمي يديها في خوف ظاهر:

– «أمر لا يحلم به أحد! كيف يمكنني أن أتدبّر أموري من دون خيمة؟»، فأجاب الرجل:

– «الوقت ربيع، ولن تصادفي مزيداً من الجو البارد». فهزّت رأسها بتصميم، وضع تشارلز وهال آخر الأمتعة والخردوات فوق

جبل الحمل. تساءل أحد الرجال:

– «هل تظن أنها يمكن جرها؟». فتساءل تشارلز باقتضاب نوعاً ما:

– «ولم لا؟»، فأسرع الرجل يقول بلطف:

– «أوه، إنه حسن. حسن. كنت أتساءل فقط، هذا كل ما هناك. يبدو لي أنها أثقل شيء في العالم». أدار تشارلز ظهره وشد الحبل إلى أسفل بأحسن ما استطاع، الأمر الذي لم يكن حسناً قط. وأكد ثان من الرجال:

– «وتستطيع الكلاب بالتأكيد أن تسير طول النهار ووراءها ذلك المتاع الضئيل».

فقال هال، بأدب يبعث على الانجماد:

– «بالتاكيد»، وأمسك بيده عصا التوازن، ولـوّح بسوطه بالأخرى، صارخاً:

– «تقدموا! تقدموا يا أنتم!».

قفزت الكلاب تشد الأعنة، وأجهدت نفوسها بضع ثوان، ثم ارتخت. لم تكن قادرة على تحريك الزلاجة، فصرخ. وهو يستعد لجلدها بالسوط:

– «الوحوش الكسلى. سأريها».

ولكن مرسيدس تدخلت، باكية:

– «أوه، هال، لا ينبغي»، ثم – وهي تمسك بالسوط وتشده منه:

– «الأعزاء المساكين! والآن، يجب أن تعد بأنك لن تكون فظاً معها لما تبقى من الرحلة، وإلا فإنني لن أتقدم خطوة»، فعنفها أخوها:

– «يا للكمية الغالية التي تعرفينها عن الكلاب! وإنني لأتمنى أن تتركيني وشأني. إنها كسلى، فأعلمي ذلك، وعليك أن تسوطيها لتحصلي منها على أي شيء. تلك طريقتها، اسألي أياً كان. اسألي أحد هؤلاء الرجال».

نظرت مرسيدس إليهم مستطلعة، وقد كتب على وجهها الجميل بغض لا يوصف لمرأى الألم.

وجاء الجواب من أحد الرجال:

– «إنها ضعيفة كالماء، إن أردت أن تعرف، المساكين مجهدة، تلك هي القضية. إنها بحاجة إلى الراحة». فقال هال، بشفتيه اللا ملتحيتين:

– «لتنمسح الراحة»، فصاحت مرسيدس:

– أوه»، متألمة وآسفة من الشتيمة.

ولكنها كانت مخلوقة ذات روح عشائرية، فاندفعت للتو لحماية أخيها، قائلة على نحو ذي مغزى:

– «لا تبال بذلك الرجل.، إنك تسوق كلابنا ولك أن تفعل ما تراه الأفضل معها».

مرّة أخرى وقع سوط هال على الكلاب. فرمت أنفسها باتجاه الأعنة، وحفرت بقوائمها الجليد المتراكم، هبطت نحوه، وعرضت كل قواها. تماسكت الزلاجة كما لو أنها كانت مرساة. وبعد محاولتين وقفت الكلاب ساكنة لاهثة. كان السوط يصفر بوحشية، عندما تدخلت مرسيدس مرة أخرى. سقطت على ركبتيها أمام (بك)، والدموع في عينيها، وطوّقته بذراعيها، باكية بتعاطف:

– «أيها الأعزاء المساكين. لم لا تسحبون أشد؟ – وعندئذ لن تساطوا». لم يجبها (بك)، ولكنه كان من التعاسة بحيث ما كان ليقاومها، معتبراً ذلك جزءاً من عمل النهار التعيس.

وتكلم أحد المتفرجين الآن، بعد أن كان يصر أسنانه ليمنع الكلام الساخن:

– «ليس الأمر أنني أبالي قلامة ظفر بما سيجري لكم، ولكن من أجل الكلاب لا بد أن أقول لك، إن بمقدورك أن تساعدها إلى حد كبير بأن تفك تلك الزلاجة، أن لوحي الانزلاق محشوران بفعل الانجماد. ارم ثقلك على عصا التوازن، يميناً ويساراً، وفكها».

مـرّة ثالثة جرت المحاولة، ولكن هذه المرة – إذا سمع هال النصيحة – فك اللوحين اللذين كانا متجمدين حتى الانغراز بالجليد. تململ قدما الزلاجة المحمّلة صعبة الإدارة، إذ كافح (بك) وزملاؤه بسعار تحت مطر الضربات. على بعد مائة ياردة إلى الأمام كان الممر يلتف وينحدر بحدة إلى الشارع الرئيسٍ. وكاٍن الحفاظ على استقامة الزلاجة المثقلة وتوازنها يتطلب رجلاً مجرّباً، ولم يكن هال ذلك الرجل. فما أن داروا حول استدارة الطريق حتى تهاوت الزلاجة، دالقة نصف حملها عبر سيور التثبيت السائبة. لم تتوقف الكلاب قط، وبقيت الزلاجة – التي خف وزنها – مثبتة على جانبها وراء الكلاب. كانت الكلاب غضبى بسبٍب سوء المعاملة التٍي تلقتها والحمل الظالم. كان (بك) يتميز غيظاً. فانفلت راكضاً، وحذا الفريق حذوه. صرخ هال:

– «هوا! هوا!»، ولكنها لم تبال. أخطأ الحركة فسحبته الزلاجة من قدميه، وانطرحت تطحنه، وٍانطلقتٍ الكلاب صاعدة الشارع، مضيفة إلى مرح سكاغواي أمراً جديداً فيما كانت تبعثر بقية المتاع على طول طريقها الرئيس.

قام مواطنون طيبو القلوب بإمساك الكلاب وتجميع الأشياء المبعثرة. وكذلك قدّموا النصيحة: نصف الحمل وضعف الكلاب، إن كانوا ينتظرون الوصول إلى داوسن، ذلك ما قيل. أصغى هال وأخته ونسيبه دون إرادة، ثم نصبوا الخيمة وفكّوا المتاع. خرجت أمتعة معلّبة جعلت الرجال يضحكون، لأن الأشياء المعلّبة على (الطريق الطويل) أمر للحلم فقط. وقال أحد الرجال الذين كانوا يضحكون ويساعدون:

– «البطانيات للفنادق. نصف هذا العدد كثير جداً، تخلّصوا منها. ارموا تلك الخيمة بعيداً، وكل تلك الصحون – من سيغسلها، على أية حال؟ يا إلهي! أتظنون أنكم مسافرون بالقطار السريع؟».

وهكذا كان: التخلص الصارم من الزوائد. وبكت مرسيدس عندما كومت حقائب ملابسها على الأرض وصار يرمى منها قطعة

إثر قطعة. بكت في العموم. كما راحت تبكي بصورة خاصة على كل شيء يرمى. ضمت يديها حول ركبتيها، مؤرجحة نفسها إلى وراء وإلى أمام بفؤاد مكسور. أكدت أنها لن تتحرك بوصة واحدة، حتى ولا من أجل دزينة من الـ (تشارلزات)، توسلت إلى كل شخص وكل شيء، وفي الآخر مسحت عينيها وانطلقت لترمي حتى مواد كسوة كانت ضرورات مؤكدة. وفي اندفاعها، وبعد أن انتهت من أغراضها، هاجمت أغراض رجليها وعصفت بها مثل إعصار.

وحتى بعد أن تم لها ذلك، كانت الأمتعة – رغم أنها قلصت – ما تزال ذات حجم رهيب. وخرج تشارلز وهال في المساء فاشتريا ستة كلاب خارجية. جعلت هذه، مضافة إلى الكلاب الستة التي كانت تشكل أصل الفريق، بالإضافة إلى (تيك) و (كونا) الهوسكيين اللذين تم الحصول عليهما عند (رنك رابيدز) في الرحلة القياسية – مما جعل الفريق مكوناً من أربعة عشر. ولكن الكلاب الخارجية، مع أنها أدخلت، عملياً، بعنف إلى الفريق، لم تكن تساوي الكثير. كان ثلاثة منها من صنف الـ (بوينتر)[٤] من ذوات الشعر القصير، وأحدها (نيوفاونلندي)[٥]، بينما كان الآخران هجينين من سلالة متوسطة. لم يكن يبدو عليهم أنهم يعرفون شيئاً، هؤلاء القادمون الجدد. كان (بك) ورفاقه ينظرون إليهم باشمئزاز، ومع أنه علمهم، بسرعة، أماكنهم وما لا ينبغي لهم أن يفعلوه، فإنه لم يستطع أن يعلمهم ما ينبغي أن يفعلوا. لم يتقبلوا العنان ولا الطريق بيسر. وباستثناء الهجينين، فإنهم كانوا محتارين ومحطمي الأنفس بفعل البيئة الوحشية الغريبة التي وجدوا أنفسهم فيها وبفعل سوء المعاملة التي تلقوها. أما الهجينان، فكانا بلا نفس أصلاً، وما كان شيء فيهما مما يتحطّم، عدا عظامهما.

---

(٤) يعني: (المؤشر)، وهو كلب كبير الحجم نحيل القوام يشم رائحة الطريدة فيبقى يؤر نحوها.

(٥) من كلاب أمريكا الشمالية. وهي كبيرة الحجم كثة الشعر سوداء اللون، غالباً. ذات ذكاء فوق المتوسط.

وإذا كان القادمون الجدد يائسين بائسين، والفريق القديم مستنفداً بفعل الألفين والخمسمائة ميل من الطريق المستمر، فقد كان الأفق كل شيء عدا كونه براقاً. ومع ذلك، فقد كان الرجلان مرحين، وكانا فخورين، أيضاً. كانا يقومان بالأمر حسب الأصول، بأربعة عشر كلباً. لقد رأيا زلاجات أخرى تغادر على الطريق إلى داوسن، أو قادمة من داوسن، ولكنهما لم يريا قط زلاجة فيها عدد من الكلاب يبلغ أربعة عشر. كان ثمة في طبيعة الأسفار القطبية سبب يمنع قيام أربعة عشر كلباً بجر زلاجة واحدة، وهو أن الزلاجة الواحدة لا يمكن أن تحمل طعام أربعة عشر كلباً. ولكن تشارلز وهال لم يكونا ليعرفا هذا. كانا قد حسبا السفرة على ورق: هذا المقدار للكلب الواحد، هذا العدد من الكلاب، في هذا العدد من الأيام، والسلام. وأطلت مرسيدس من فوق كتفيهما وهزت رأسها بتفهم: كان الأمر كله بسيطاً للغاية!.

في وقت متأخر من صباح اليوم التالي قاد (بك) الفريق الطويل صاعداً الشارع، لم يكن ثمة ما هو حي في الفريق: فلا حياة ولا اندفاعة فيه ولا في زملائه. كانوا قد بدوا متعبين حتى الموت. أربع مرات سبق له أن غطى المسافة بين (سولت واتر) وداوسن، وكانت معرفته بأنه يواجه نفس الطريق مرة أخرى – مستنفداً ومتعباً – تجعله يشعر بالمرارة. لم يكن قلبه في الشغل، كما لم يكن قلب أي كلب آخر. وكانت الكلاب الخارجية حيية ومرعوبة، والقديمة لا تمتلك الثقة في أسيادها.

أحس (بك) بصورة غامضة أنه لا يمكن الاعتماد على ذينك الرجلين وتلك المرأة. لم يكونوا يعرفون أي شيء، وفيما كانت الأيام تمر كان يتضح أنهم لا يمكن أن يتعلموا. كانوا جهلة بطيئين في كل شيء، من دون نظام ولا ضبط، لقد استغرق اعدادهم لمخيم غير منتظم نصف ليلة، ونصف صباح لتفكيك ذلك المخيم وتحميل الزلاجة حسب الأصول، بتشويش يجعلهم مشغولين طوال النهار بالتوقف وإعادة ترتيب الحمل. في بعض الأيام ما كانوا ليقطعون

عشرة أميال، وفي أيام أخرى عجزوا عن التحرك أصلاً. ولم ينجحوا في أي يوم أن يقطعوا نصف المسافة التي يقطعها الناس، كقاعدة لحساباتهم بخصوص طعام الكلاب.

كان محتماً أن ينفذ طعام كلابهم. ولكنهم عجلوا ذلك بالمبالغة في الإطعام، مقدمين اليوم الذي سيبدأ فيه التجويع. وكان للكلاب الخارجية - التي لم تتدرب أجهزة هضمها، بالتجويع المتعمد، على أن تفيد أكبر فائدة من أقل القليل - شهيات ضارية. وعندما أخذت الهوسكية المجهدة - إضافة إلى هذا - تجرٍ بضعف، قرّر هال أن الحصة المتعارف عليها كانت صغيرة جداً، فضاعفها. ولتضيف ضغثاً على أبالة، فإن مرسيدس - وقد اغرورقت عيناها دموعاً وارتعش الصوت في حنجرتها - حين لم تستطع إقناعه بالتملق أن يعطيٍ الكلاب المزيد - سرقت من أكياس السمك وراحت تغذيها سراً. ولكن لم يكن الطعام هو ما كان (بك) والهوسكيات بحاجة إليه، وإنما الراحة. ومع أنهم كانوا يحققون سرعة خائبة، فإن الحمل الذي كانوا يجرّونه كان يستنزف قوتهم بحدة.

ثم جاء التجويع. استيقظ هال ذات يوم على حقيقة أن طعام كلابه قد نفد نصفه في حين أنهم لم يقطعوا من طريقهم إلا ربعه، وبالاضافة إلى ذلك، فلم يكن يمكن الحصول على طعام إضافي للكلاب، لا مقابل المال ولا لقاء أي شيء آخر. وهكذا، فقد قلّل حتى الحصة التقليدية وحاول أن يزيد سفر النهار. دعمته أختهِ ونسيبه، ولكن هزمهم جهازهم الثقيل وعجزهم، كان أمراً سهلاً إعطاء الكلاب طعاماً أقل، ولكن يستحيل جعل الكلاب تسافر أسرعٍ، في حين كانت عدم مقدرتهم على الانطلاق مبكرين أكثر صباحاً تمنعهم من السفر ساعات أطول. لم يكونوا يجهلون فقط كيفية معاملة الكلاب، بل كانوا يجهلون أيضاً كيف يعاملون أنفسهم.

كان أول من قضى دوب. إن ذلك اللص سريع الانكشاف المسكينٍ، الذي كان يقبض عليه دائماً فيعاقب، كان مع ذلك شغيلاً مخلصاً، كان عظم كتفه المرضوض - الذي لم يعالج فلم يسترح -

يزداد سوءاً حتى أطلق عليه هال النار أخيراً من مسدسه الكولت الكبير. إن من الأقوال المأثورة في البلاد أن كلباً خارجياً يتضور حتى الموت بحصة الهوسكي، وهكذا فإن الكلاب الخارجية الستة، تحت قيادة (بك) ما كان بمقدورها إلا أن تموت على نصف حصة الهوسكي. وقضى النيوفاونلندي أولاً، ثم تبعته البوينترات الثلاثة ذات الشعر القصير، ومع تشبث الهجينين بشجاعة أكبر بالحياة، إلا أنهما مضيا أخيراً.

في هذه الأثناء تهاوت كل رقة الجنوب وجاذبياته عن هؤلاء الأشخاص الثلاثة. لقد أصبح السفر القطبي بالنسبة لهم - بعد أن تجرد من غموضه ورومانسيته - واقعاً أكثر خشونة مما يمكن لرجولتيهما وأنوثتها أن تحتمل. كفّت مرسيدس عن البكاء على الكلاب، لكونها أكثر انشغالاً بالبكاء على نفسها وبالعراك مع زوجها وأخيها. كان العراك هو الأمر الوحيد الذي لا يتعبون من القيام به. كانت استثارتهم تنشأ عن بؤسهم، وتزداد معه، وتتضاعف عليه، فتتجاوزه. إن صبر الطريق العجيب، الذي يحل على الرجال الذين يكدون بمشقة فيعانون من المرارة ويبقون رقيقي الكلام طيبين، ذلك الصبر لم يحل بذينك الرجلين وتلك المرأة. لم تكن لديهم خصاصة من مثل هذا الصبر. كانوا متصلبين موجوعين، تتألم عضلاتهم، تتألم عظامهم وتتألم حتى قلوبهم، وبسبب من هذا صاروا حادي الكلام، وكانت الكلمات الفظة أول شيء على شفاههم صباحاً وآخر شيء عليها مساء.

كان تشارلز وهال يتعاركان كلما أعطتهم مرسيدس فرصة. وكان الاعتقاد الذي يداريه كل منهما هو أنه قام بأكثر من حصته من العمل، فلم يكن يتحفّظ من إعلان اعتقاده ذاك في كل سانحة. وكانت مرسيدس تأخذ جانب زوجها أحياناً، وجانب أخيها أحياناً أخرى. وكانت النتيجة شجاراً عائلياً جميلاً لا ينتهي. إن شجاراً يبدأ من الخلاف حول من ينبغي أن يقطع بضع خشبات للنار (وهو خلاف لا يخص غير تشارلز وهال) كان ينسحب أخيراً على بقية

العائلة، آباء وأمهات وأعمام وأخوال وأبناء أعمام وأخوال، على أناس يبعدون آلاف الأميال وبعضهم ميت. إن كون آراء هال في الفن، أو نوع التمثيليات الاجتماعية التي يكتبها خاله، ذات علاقة بتقطيع بضعة أعواد من الخشب للوقود، أمر يتجاوز الإدراك، ومع ذلك فقد كان يحتمل أن يميل الشجار إلى ذلك الاتجاه كما يحتمل أن يميل إلى ولاءات تشارلز السياسية. وإن احتمال أن تكون ثمة علاقة للسان أخت تشارلز، المهذار، بإقامة نار هندية أمر غير واضح إلا بالنسبة لمرسيدس، التي كانت تنفض عن كاهلها أفكاراً مستفيضة حول ذلك الموضوع، و – عرضاً – عن بضع نواح أخرى تخص عائلة زوجها، فهذا أمر لا يسر أحداً. وفي هذه الأثناء تبقى النار غير معدة، والمخيم نصف محفور، والكلاب بلا طعام.

كانت مرسيدس تنمي حزناً خاصاً – حزن الجنس. كانت جميلة وناعمة، وقد نالت معاملة فروسية طيلة حياتها. ولكن معاملة زوجها وأخيها الحالية كانت كل شيء عدا أن تكون فروسية. كان من عادتها أن تكون يائسة. كانا يشتكيان. وعند ذلك – متهمة ما كان بالنسبة لها تفوقها الجنسي الأكثر أساسية – كانت تجعل حياتيهما مستحيلة. لم تعد تراعي الكلاب. ولأنها كانت تشعر بالمرارة والتعب، فقد ألحت أن تركب الزلاجة. كانت جميلة وناعمة، ولكنها كانت تزن مائة وعشرين رطلاً – قشة أخيرة كسولاً على الحمل الذي تجره الحيوانات الضعيفة والمتضورة جوعاً. بقيت راكبة أياماً، حتى سقطت الكلاب في الأعنة ووقفت الزلاجة ساكنة دون حراك. استجداها تشارلز وهال أن تنزل وتمشي، توسلا إليها، حثاها، في حين كانت تبكي وتزعج السماء بمحفوظة عن وحشيتهما.

وذات مرة أنزلاها عن الزلاجة بالقوة. ولم يعاودا ذلك بعد. فقد تركت ساقيها ترتخيان فعل طفل مدلل، وجلست على الطريق. استمرا في طريقهما، ولكنها لم تتحرك. وبعد أن قطعا ثلاثة أميال أفرغا الزلاجة، وعادا في طلبها، وبالقوة أركباها الزلاجة ثانية.

في ازدياد بؤسهم الخاص كانوا أشداء أمام معاناة حيواناتهم. وكانت نظرية هال – التي كان يطبقها على الآخرين – أن المرء

ينبغي أن يتصلب. بدأ يعظ بها أخته ونسيبه. وإذ فشل هناك، راح يفرضها على الكلاب بالهراوة. عند الـ (فايف فنغرز)، نفد طعام الكلاب، فعرضت عليهم هندية عجوز عديمة الأسنان مقايضة بعض أرطال من جلد حصان مجمد بالمسدس الكولت الذي كان يستقر على ردف هال مع سكين الصيد. كان ذلك الجلد الخام بديلاً بائساً عن الطعام، كما كان بائساً عندما سلخ عن خيل الرعاة الجائعة قبل ستة شهور، تماماً. وفي حالته المتجمدة، كان أكثر شبهاً بشرائط من حديد مغلون، وعندما كان يصارعه كلب ما ليودعه معدته كان يذوب ليصير سيوراً جلدية خفيفة لا مغذية وكتلة من الشعر القصير، مزعجة وغير قابلة للهضم.

وطوال ذلك كله كان (بك) يمضي قدماً على رأس الفريق كما لو في كابوس. كان يجر عندما يستطيع، وعندما لم يكن بمقدوره أن يجر كان يسقط ويبقى مطروحاً حتى ترفعه على ساقيه ثانية ضربات سوط أو هراوة. لقد زال عن معطفه الفراني الجميل كل الصلابة والبريق. كان الشعر يتدلى رخواً مبللاً ومتسخاً، أو كابياً بفعل الدم المتيبس حيث تكون هراوة هال قد كدمته. وكانت عضلاته قد ضاعت لتصير حبالاً ذات عقد، واختفت طيات اللحم، بحيث أن كل ضلع وكل عظم في هيكله صار محدداً بوضوح خلال الجلد المرتخي الذي كان يتغضن في طيات من فراغ. كان ذلك مما يحطم الفؤاد، وكل ما هنالك أن فؤاد (بك) كان عصياً على الكسر. وقد برهن على ذلك الرجل ذو البلوزة الحمراء.

كما جرت الأمور مع بك، جرت مع زملائه. صاروا هياكل تمشي، كانوا جميعهم سبعة، بما فيهم هو. وفي بؤسهم الهائل جداً لم يعودوا يحسون لسعة السوط أو كدمة الهراوة. كان وجع الضرب غائماً وبعيداً، بالضبط كما كانت تبدو الأشياء التي تراها عيونهم وتسمعها آذانهم غائمة وبعيدة. لم يكونوا نصف أحياء، ولا ربع أحياء. كانوا، ببساطة، عدة أكياس من العظام ترتعش فيها ومضات خابية من الحياة. عندما كان يتم توقف، كانوا يتهاوون في الأعنة

مثل كلاب ميتة، فكانت الومضات تعتم وتشحب وتبدو قد اندثرت. وعندما كانت الهراوة، والسوط يقع عليهم، كانت الومضة تتصاعد خابية، فكانوا يرتعشون على قوائمهم ويتعثرون.

وجاء يوم سقط فيه بيلي، الطيب، ولم يتمكن من النهوض. كان هال قد قايض بمسدسه، وهكذا فقد أخذ الفأس وضرب بيلي على الرأس فيما كان ممداً على الأعنة، ثم قطع رباط الجثة من الأسرجة وسحبها إلى جانب. رأى (بك) ذلك، ورآه زملاؤه، وقد عرفوا أن ذلك الشيء كان قريباً جداً منهم. في اليوم التالي مضت كونا، فلم يبقَ منهم غير خمسة: جو، الذي تلاشى كثيراً حتى لم يعد حقوداً، وبايك، المشوه الأعرج نصف الواعي والذي لم يكن واعياً بما يكفي ليتمارض، وسول ليكس، الأعور الذي كان لا يزال مخلصاً لكد العنان والطريق، والذي كان حزيناً لأنه ليست لديه إلا قوة قليلة يسحب بها، وتيك، الذي لم يكن قد سافر كثيراً ذلك الشتاء والذي كان الأن محطماً أكثر من الآخرين لأنه كان حديث العهد أكثر، و(بك)، وهو لا يزال على رأس الفريق، ولكن الذي لم يعد يفرض الضبط أو يجاهد لفرضه، والذي أعماه الضعف نصف الوقت بينما أتم عماه البقاء على الطريق بذلك الضعف وبالاحساس الخابي لرجليه.

كان جواً ربيعياً جميلاً، ولكن لم يحسه لا الكلاب ولا البشر. كانت الشمس تشرق كل يوم في وقت أبكر وتغرب في وقت أكثر تأخراً. كان الفجر يحل في الثالثة صباحاً، بينما يتباطأ الغسق حتى التاسعة مساءً. كان النهار بطوله بريقاً من الشمس الساطعة. لقد أخلى صمت الشتاء الشبحي مكانه للهمهمة الربيعية العظيمة لاستيقاظ الحياة. وقد ارتفعت هذه الهمهمة من كل الأرض، محملة بمتعة الحياة. جاءت من الأشياء التي كانت تحيا وتتحرك ثانية، الأشياء التي كانت كالميتة والتي لم تتحرك طيلة شهور الصقيع الطويلة. كان النسغ يتصاعد في أشجار الصنوبر. وكانت الشجيرات والأشجار تنفجر في براعم فتية. وكانت الأجمات والخمائل ترتدي حللاً جديدة

من الخضرة. كانت الصراصير تغني في الليالي، وفي النهارات كانت كل أنواع الأشياء الزاحفة المتلوية تصدر حفيفاً تحت الشمس. كانت طيور الدراج ونقار الخشب تضج وتدق الغابة دقاً. وكانت السناجب تصخب والطيور تغني، وفي الأعالي كان زعيق الطيور الوحشي ينطلق صعداً من الجنوب في سهام جريئة تشطر الهواء.

من سفح كل تل كان يأتي خرير ماء جار، وموسيقى نافورات لامرئية. كانت كل الأشياء تـذوب، تتقوس وتتهشم. وكان الـ(يوكون) يجهد ليكسر الجليد الذي كان يشدّه إلى تحت. كان يأكل من أسفل، بينما تأكل الشمس من فوق. تشكلت فجوات هواء، وانفلقت خدوش في الصخور وانتشرت منفصلة، في حين تساقطت شطائر رقيقة من الثلج - بأحجامها الكاملة - هاوية في النهر. وفي وسط كل هذا التفتّح والتمزّق ونبض استيقاظ الحياة، تحت أشعة الشمس وعبر النسيم ذي الهسيس، مثل مسافرين على الأقدام إلى الموت، كان الرجلان والمرأة والكلاب الهوسكية يدرجون.

الكلاب تتساقط، ومرسيدس تبكي وتركب، وهال يشتم من دون قصد سوء. وعينا تشارلز تدمعان بلهفة غامضة، بذلك كله راحوا يدرجون إلى مخيم (جون ثورنتون) في مدخل (وايت رِيفر). وعندما توقفوا، تداعت الكلاب كما لو أنها سقطت جميعاً ميتة. جففت مرسيدس عينيها ونظرت إلى جون ثورنتون. جلس تشارلز على جذع ليستريح. جلس ببطء شديد وتوجس بالغ، لشدة تيبسه. قام هال بالحديث، وكان جون ثورنتون يضع - بسكين - اللمسات الأخيرة على مقبض فأس كان قد صنعه من عصا من الـ (بتولا). كان يكحت ويصغي، يعطي أجوبة أحادية المقطع، كما يعطي نصائح مقتضبة، عندما تطلب منه. كان يعرف نوع الجنس الذي يحادثه، فكان يعطي النصيحة وهو واثق من أنها لن تتبع.

قال هال، رداً على تحذير ثورنتون من عدم المجازفة مزيداً على الجليد المهترئ:

- «أخبرونا هناك، فوق، أن القعر يتساقط عن الطريق وأن

أفضل شيء لنا هو أن ننتظر. لقد أخبرونا أننا لن نتمكن من بلوغ (وايت ريفر)، وها نحن هنا»، وكان في الجملة الأخيرة نغمة انتصار مكشرة.

أجاب جون ثورنتون:

– «لقد أخبروكم الحق. قد ينهار القعر في أية لحظة. ما كان ليستطيع أحد غير الحمقى، حين يحالفهم الحظ الأعمى، أن يبلغوه. وإنني لأقول لك بصراحة، إنني لن أجازف بجثتي على ذلك الجليد لقاء ذهب ألاسكا كله».

فقال هال:

– «ذلك لأنك لست أحمق، كما أفترض. ومع ذلك، فسنستمر حتى داوسن»، ثم فك سوطه، وواصل:

– «انهض أنت، يا بك! انهضوا! تقدموا!».

استمر ثورنتون يكحت. كان من العبث، وهو يعرف ذلك، التدخّل بين الأحمق وحماقته، في حين أن زيادة أحمقين أو ثلاثة لن يغير مجرى الأمور.

ولكن الفريق لم ينهض انصياعاً للأمر. كان قد انتقل منذ أمد بعيد إلى المرحلة التي تقوم فيها الحاجة إلى الضرب كي ينهضه. فقرقع السوط، هنا وهناك، في انطلاقاته القاسية. ضغط جون ثورنتون شفتيه. كان سول ليكس أول من زحف ليقف. تبعه تيك، وجاء جو تالياً، يصرخ من الألم. قام بايك بجهود مضنية. تهاوى مرتين قبل أن يتم نهوضه. وفي المرة الثالثة نجح في الوقوف. لم يقم (بك) بأي مسعى. كان يتمدّد هادئاً حيث سقط قبلاً. كان السوط ينهش فيه مرة وأخرى، ولكنه لم يهر ولم يكافح حتى. وعدة مرات بدا ثورنتون كما لو أنه يريد أن يتكلم، ولكنّه غيّر رأيه، وحلّت رطوبة في عينيه. وفيما استمر الجلد نهض وراح يمشي، بدون قرار، جيئة وذهاباً.

كانت هذه أول مرّة يخفق فيها (بك)، وكان ذلك بحد ذاته سبباً كافياً لجعل هال يستعر غضباً. استبدل السوط بالهراوة المألوفة.

رفض (بك) أن يتحرك تحت مطر الضربات الأثقل التي أخذت تتساقط عليه. ومثل زملائه، كان بالكاد قادراً على النهوض. ولكنه – على عكسهم – كان قد زملائه، كان بالكاد قادراً على النهوض. ولكنه – على عكسهم – كان قد عزم ألا ينهض. كان يحس إحساساً غامضاً بالفاجعة الوشيكة. وكان هذا الإحساس قوياً عليه عندما انسحب إلى الضفة، ولم يزايله بعد ذلك. ما أحسه من جليد رقيق هش تحت قدميه طوال النهار، كان يبدو أنه يحس كارثة قريبة، هناك إلى أمام على الجليد حيث كان سيده يحاول أن يسوقه. رفض أن يتحرك. لقد كانت معاناته عظيمة للغاية، وكان متلاشياً للغاية، بحيث أن الضربات لم توجعه كثيراً. وفيما تواصل سقوطها عليه، خفقت شعلة الحياة في داخله واضمحلت. أوشكت أن تنطفئ. أحس خدراً غريباً. وكما لو من مسافة غاية في البعد، كان يدرك أنه يضرب. زايلته آخر أحاسيس الألم. لم يعد يحس شيئاً، مع أنه كان بمقدوره أن يسمع – بشكل خابٍ جداً – وقع الهراوة على بدنه، ولكنه لم يعد بدنه، كان يبدو بعيداً جداً.

ثم، فجأة، بدون تحذير، وهو يطلق صرخة كانت مكتومة، صرخة حيوان أكثر منها أي شيء آخر، قفز جون ثورنتون على الرجل الذي كان يلوح بالهراوة. تراجع هال إلى وراء، كا لو ضربته شجرة هاوية وصرخت مرسيدس، نظر تشارلز إلى أمام بحذر، ومسح عينيه المبللتين، ولكنه لم ينهض بسبب تيبسه.

وقف جون ثورنتون فوق (بك)، مكافحاً كي يسيطر على نفسه، وقد شنجه الغضب إلى حد يمنعه من الكلام. وأخيراً، تمكن أن يقول بصوت مختنق:

– «إذا ضربت ذلك الكلب ثانية، فسأقتلك». وردّ هال، وهو يمسح الدم عن فمه فيما التقط أنفاسه:

– «إنه كلبي، ابتعد عن طريقي، وإلا فسأعلمك كيف تبتعد. إنني ذاهب إلى داوسن».

وقف ثورنتون بينه وبين (بـك)، ولم يكشف عن أيـة نية في الابتعاد عن الطريق. واستلّ هال سكين صيده الطويلة. صرخت

مرسيدس، بكت، ضحكت، ثم أظهرت الاستسلام المرتبك إلى الهستيريا. نقر ثورنتون مفاصل أصابع هال بمقبض الفأس، مسقطاً السكين إلى الأرض. ثم نقر مفاصل أصابعه مرة أخرى عندما حاول أن يلتقطها. ثم انحنى. والتقطها هو. وبضربتين قطع أعنة (بك).

لم يتبق لدى هال أي قتال. وإضافة إلى ذلك كانت يداه مليئتين بأخته، أو ذراعه بالأحرى. بينما كان (بك) أقرب إلى الموت من أن يصلح لجر الزلاجة. وبعد بضع دقائق انسحبوا عن الضفة ومضوا هابطين مع النهر. سمعهم (بك) يذهبون، فرفع رأسه ليرى. كان بايك يقود، وسول ليكس عند العجلة، وكان جو وتيك بينهما. كانوا يعرجون ويترنحون، وكانت مرسيدس تركب الزلاجة المحملة. وكان هال يقود عند عصا التوازن، في حين كان تشارلز محشوراً عند المؤخرة.

فيما كان (بك) يراقبهم، ركع ثورنتون إلى جانبه وراح يبحث - بيدين خشنتين لطيفتين - عن العظام المكسورة. وعندما لم يسفر تفتيشه عن شيء أكثر من عدة سحجات، وحالة تضور فظيع من الجوع. كانت الزلاجة قد صارت على بعد ربع ميل. راقبها الكلب والرجل تزحف عبر الثلج، وفجأة، رأيا مؤخرتها تسقط، كما لو بفعل شبق حيواني، وعصا التوازن تنشمر - وهال متشبث بها - وفي الهواء. بلغت صرخة مرسيدس آذانهما. رأيا تشارلز يدور ويقوم بخطوة واحدة كي يركض إلى خلف، ثم انهار مقطع كامل من الثلج فاختفى الكلاب والناس. كانت فجوة فاغرة هي كل ما يمكن رؤيته. كان القعر قد سقط من الطريق.

نظر جون ثورنتون و (بك)، كل منهما، إلى الآخر. ثم قال جون ثورنتون:

- «أيها الشيطان المسكين».

ولعق (بك) يده.

٦- من أجل حب رجل

عندما جمدت قدما جون ثورنتون في كانون الأول الماضي، كان شريكاه قد جعلاه يستريح وتركاه ليتحسّن، صاعدين بمفردهما النهر ليوصلا عبارة محملة بجذوع النجارة إلى داوسن. وكان لا يزال يعرج قليلاً عندما أنقذ (بك)، ولكن بتواصل الجو الدافئ تخلص حتى من العرج الخفيف. وهنا، متمدداً عند ضفة النهر عند نهارات الربيع الطويلة، مراقباً الماء الدافق، مصغياً بكسل إلى أغاني الطيور وهمهمة الطبيعة، استعاد (بك) قوته ببطء.

إن راحة جيدة للغاية تحل بعد أن يكون الواحد قد سافر ثلاثة آلاف ميل، ولا بد من الاعتراف بأن (بك) قد صار كسولا فيما كانت جراحه تلتئم، وانتفخت عضلاته، وعاد اللحم يغطي عظامه، لذلك السبب، كانوا يقتلون الوقت جميعاً: (بك) وجون ثورنتون وسكيت ونيغ - منتظرين مجيء العبارة التي كانت ستقلهم إلى داوسن. كانت سكيت من سلالة الـ (سيتر) [٦] الإيرلندية، صغيرة، توددت إلى (بك) مبكراً، (بك) الذي لم يكن قادراً - إذ كان على شفير الموت - أن يحس ملاطفاتها. كانت لديها لمسة الطبيب التي لبعض الكلاب. وكما تغسل الهرة أولادها كذلك غسلت سكيت جروح (بك) وطهرتها. بانتظام، كل صباح بعد أن يكون قد أنهى فطوره، كانت تؤدي مهمتها التي حددتها لنفسها، حتى صار يترقب خدماتها كما كان ينتظر مساعدات ثورنتون. أما نيغ، الذي كان ودوداً بنفس القدر وإن كان أقل عرضاً للود، فقد كان كلباً أسود ضخماً، نصف

(٦) فصيلة كلاب طويلة الشعر مدببة الوجه. تدرب على محاصرة الطريدة والإشارة إليها بمط جسدها.

كلب دم[٧] ونصف كلب غزال[٨]، له عينان تضحكان وطبيعة طيبة بلا حدود.

أدهش (بك) أن ذينك الكلبين لم يظهرا نحوه حسداً. لقد بدا وكأنهما يتقاسمان رقة جون ثورنتون وسعته. وفيما ازدادت قوة (بك) راحا يغريانه بأداء كل أنواع الألاعيب المضحكة، التي كان جون ثورنتون نفسه لا يتورع عن المشاركة فيها. وبهذه الصورة اجتاز (بك)، بيسر فترة نقاهته إلى وجود جديد. لقد صار الحب، الحب العاطفي الحقيقي، من نصيبه لأول مرة. لم يسبق أن جرب هذا في بيت القاضي ميلر في وادي سانتا كلارا. مع أولاد القاضي، كان الصيد ونصب الفخاخ شراكة في العمل، ومع أحفاد القاضي، كان نوعاً من الوصاية المغرورة، أما مع القاضي نفسه فكان صداقة موقرة وذات أبهة. ولكن الحب المحموم والمحرق، الحب الذي هو عبادة، جنون، فهو يحتاج إلى جون ثورنتون ليثيره.

لقد أنقذ هذا الرجل حياته، وقد كان هذا شأناً عظيماً، ولكنه كان - بالاضافة إلى ذلك - السيد المثالي. كان الرجال الآخرون يرعون رفاه كلابهم بدافع حس بالواجب، أو كواجب عملي. أما هو، فكان يراعي كلابه كما لو كانوا أطفاله، لأنه لم يكن ليستطيع ألا يفعل ذلك. لم يكن ينسى أبداً تحية رقيقة أو كلمة ملاطفة، وكان جلوسه لإجراء حديث طويل معهم مبعث سرور له كما هو لهم. كانت له طريقة في تناول رأس (بك) بفظاظة بين يديه، وإراحة رأسه على رأس (بك)، وهزة إلى وراء وأمام، مطلقاً عليه، في هذه الأثناء، شتائم كانت، بالنسبة لـ (بك)، أسماء حب، لم يعرف (بك) متعة أعظم من ذلك العناق الفظ وصوت الشتائم المهموسة، وعند كل هزة إلى وراء وإلى أمام كان يبدو أن قلبه سيهتز حتى يخرج من جسده. إلى هذا المدى كانت اللذة عظيمة. وعندما كان يطلقه فيقفز واقفاً،

---

(٧) كلب ضخم حاد الحواس كبير الأذنين. متغضن الوجه.

(٨) كلب كبير أشعث الشعر يستخدم لصيد الغزلان.

ضاحك الفم وعيناه ناطقتان وحنجرته ترتعش بصمت غير منطوق، ويبقى على تلك الحال من دون حركة، كان جون ثورنتون يطلق، باحترام، صيحة تعجب: «يا إلهي! إنك تستطيع القيام بكل شيء، عدا الكلام».

كانت لدى (بكٍ) لعبة، يعبّر بها عن الحب، قريبة من إيقاع الأذى. كان غالباً ما يمسك يد ثورنتون بفمه ويغلقه عليها بضراوة بالغة تجعل لحمها يحمل طبعات الأسنان لوقت طويل بعدها. ولما كان (بك) يفهم الشتائم على أنها كلمات حب، كذلك كان الرجل يفهم هذه العضة الظاهرية على أنها عناق.

على كل حالٍ، فقد كان حب (بك) يتم التعبير عنه بالعبادة. ففيما كان يجن فرحاً عندما يلمسه ثورنتون أو يكلّمه، كان لا يسعى إلى هذه الملاطفات. وعلى عكس سكيت، التي كانت معتادة على دس أنفها تحت يد ثورنتون وتبقى تكز وتكز حتى يلاعبها. أو نيغ، الذي كان ينسل فيريح رأسه العظيم على ركبة ثورنتونٍ، كانٍ (بك) يقنع بتأمّله على البعد، كان يتمدّد طيلة ساعات، متلهِّفاً يقظاً، عندٍ قدمي ثورنتونٍ، متأملاً إلى أعلى في وجهه، مستقراً عليه، دارساً إياه، متابعاً باهتمام بالغ اللهفة كل تعبير مرتسم، وكل حركة أو تغيرٍ ملمحٍ. أو، كما يمكن للصدف أن تجعله يفعل، كان يتمدّد بعيداً مراقباً خطوط ظلال الرجل والحركات العرضية لجسده. وكان الاتحاد الذي يعيشان فيه من التماسك بحيث أن قوة تحديق (بك) كانت غالباً ما تلفت نظر جون ثورنتون إليه، فكان يرد التحديق، دون كلام، وقلبه يشع من عينيه كما يشع قلب (بك) خارجاً.

لمدة طويلة بعد إنقاذه، بقي (بك) يكره أن يبتعد ثورنتون عن ناظريه. فمنذ الدقيقة التي كان فيها يغادر الخيمة حتى كان يدخلها ثانية، كان (بك) يتبعه عند عقبيه تماماً. لقد ربى فيه أسياده الطارئون – منذ جاء إلى الشمال – خوفاً سيمسحه ثورنتون من حياته كما انمسح من حياته بيرو وفرانسوا والخلاسي الاسكتلندي. وحتى في الليل، في أحلامه، كان مسكوناً بهذا الخوف. في مثل هذه الأوقات كان

يهز النعاس طارداً إياه ويزحف عبر الزمهرير إلى فتحة الخيمة، حيث كان يمكنه أن يقف ويصغي إلى صوت تنفس سيده.

ولكن. على الرغم من الحب العظيم الذي كان يكنّه لجون ثورنتون، الذي كان يبدو وكأنه يشي بالتأثير التمدني الناعم، فقد بقيت روح البداءة – التي أثارها الشمال فيه – حية وفعالة. كان من شأنه الإخلاص والولاء التام، الأمران اللذان تلدهما النار والسقف، ومع ذلك فقد حافظ على وحشيته وجرأته. كان شيئاً يخص التوحش، يأتي من التوحش ليجلس عند نار جون ثورنتون، أكثر منه كلباً من الجنوب الناعم ممهوراً بعلامات أجيال من المدنية. وبسبب من حبه العظيم جداً، لم يكن بمقدوره أن يبتعد عن هذا الرجل، أما عن أي رجل آخر، في أي مخيم آخر، فما كان ليتردّد برهة، في حين كانت الجرأة التي ينسل بها تمكّنه من تجنّب الشك فيه.

كان وجهه وجسده معلمين بأسنان العديد من الكلاب، وظلّ يحارب بضراوة كضراوة الأيام السابقة، وبمهارة أكبر. كانت سكيت ونيغ أطيب من أن يتشاجرا، وإضافة إلى ذلك، كانا يخصان جون ثورنتون. ولكن الكلب الغريب، كائناً ما كانت سلالته وشجاعته، يعترف مسرعاً بتفوق (بك) وإلا فهو يجد نفسه يكافح للإبقاء على حياته ضد خصم رهيب. وكان (بك) عديم الرحمة، كان قد تعلّم جيداً قانون الهراوة والناب، فلم يستغن عن منفعة ولا انسحب عن خصم كان قد بدأ معه على طريق الموت، قط. كان قد تلقّن الدرس من سبتز، ومن كلاب العراك الرئيسة لدى الشرطة أو البريد، وكان يعرفه أنه ليس ثمة طريق وسط. لا بد أن يسود أو يخضع لسيّد، بينما كان إظهار الرحمة ضعفاً. لم يكن للرحمة وجود في الحياة الأزلية، كان يساء تفسيرها على أنها خوف، وكان سوء فهم كهذا يعني الموت. اقتل وإلا تُقتل، كُل وإلا تُؤكل، كان ذلك هو القانون، ولقد أطاع هذا الحكم الممتد في أعْماق الزمن.

كان (بك) أكبر من الأيام التي رآها والأنفاس التي استنشقها. لقد ربط الماضي بالحاضر، وكانت الأبدية التي وراءه تنبض عبره في إيقاع جبار كان هو يميل إليه كما يتحرّك المد والجزر والفصول.

كان يجلس عند نار جون ثورنتون، كلباً عريض الصدر، أبيض الأنياب، طويل الفراء، ولكن وراءه كانت ظلال كل حالات الكلاب وأنصاف الذئاب والذئاب الوحشية، ملحة حاثة، متذوقة طعم اللحم الذي كان يأكله، متعطشة للماء الذي يشربه، شامة الريح معه، مصغية معه ومخبرة إياه بالأصوات التي تحدثها الحياة الوحشية في الغابة، مملية أمزجته، موجِّهة أعماله، متمدِّدة كي تنام معه عندما يتمدّد، وحالمة معه ووراءه وصائرة هي نفسها مادة أحلامه.

ولقد كانت هذه الظلال تستدعيه بحسم بالغ بحيث راح الجنس البشري وادعاءات البشرية تنسل مبتعدة عنه يوماً بعد يوم. وعميقاً في الغابة كان نداء يدوي، وتصوّر ما كان يردِّده ذلك النداء، مهيّجاً بغموض، كان يحسّ نفسه مجبراً على إدارة ظهره للنار والأرض المخفوقة حوله، وأن يندفع إلى الغابة، ويمضي قدماً فيها، من دون أن يعرف إلى أين أو لماذا، ولا يتساءل أين أو لماذا، والنداء يصوت بجلال، عميقاً في الغابة. ولكن، بقدر ما كان يحوز الأرض الناعمة غير المخدوشة والظل الأخضر كان حبه لجون ثورنتون يسحبه إلى وراء، نحو النار ثانية.

لم يكن يمسكه غير ثورنتون. كان بقية النوع البشري مثل لا شيء. قد يمتدحه المسافرون الطارئون أو يدللونه، ولكنه كان يبقى بارداً تحت ذلك كله، وإذا كان من يفعل ذلك رجل محب للتظاهر كثيراً فإنه كان يقوم ويبتعد عنه. وعندما وصل شريكاً ثورنتون: (هانس) و (بيت)، على العبّارة التي طال انتظارها، رفض (بك) أن يلاحظهما إلى أن عرف أنهما كانا قريبين جداً إلى ثورنتون، وبعدئذ تحمّلهما بطريقة سلبية، قابل ملاطفتهما وكأنه يمنّ عليهما قبوله إياها. كانا من نفس طراز ثورنتون الضخم، يعيشان قريبين من الأرض، مفكرين ببساطة فيريان بوضوح، وما إن نقلا العبّارة إلى مجرى التيار الكبير عند المنشرة بداوسن، حتى فهما (بك) وأساليبه، فلم يلحّا في طلب معاملة صميمية كالتي كانا ينالانها من سكيت ونيغ.

أما بالنسبة لثورنتون، فقد كان يبدو حبه ينمو وينمو. لم يكن

بمقدور سواه أن يضع رزمة على ظهر (بك) في السفر الصيفي. لم يكن أي شيء كبيراً على (بك) بحيث لا يمكنه القيام به، عندما يأمر ثورنتون بذلك.

ذات يوم، (وكانوا قد اقترضوا بضمانة عائدات العبّارة فتجهّزوا وغادروا داوسن نحو أعالي المياه في «تانانا»)، كان الرجال والكلاب على ذروة جدار صخري ينحدر، مباشرة إلى أسفل، على حوض صخري أجرد على ارتفاع ثلاثمائة قدم إلى أسفل. وكان جون ثورنتون يجلس قرب الحافة، فلفت انتباه هانس وبيت إلى التجربة التي كان يبيتها في ذهنه:

– «اقفز، يا (بك)»، أمر وهو يمد ذراعه ماسحاً به وناشراً إياه فوق الهاوية. وفي اللحظة التالية كان يتشبث مع (بك) بالحافة القصوى، في حين كان هانس وبيت يجرانهما ثانية إلى الأمان.

– «إنه لغريب الصلابة»، قالها بيت بعد أن انتهى الأمر وتمكنوا من مباشرة الكلام.

فهز ثورنتون رأسه:

– «كلا، إنه رائع، وهو رهيب، أيضاً. هل تعرفان، أنه يجعلني أخاف أحياناً».

فأعلن بيت مستنتجاً، وهو يهز رأسه نحو (بك):

– «إنني لن أتمنى أن أكون الرجل الذي يمد يده عليك حينما يكون هو قريباً». أما تعليق هانس فكان:

– «بحق المسيح! ولا أنا أيضاً».

عند (سيركل ستي)، وقد انتهت السنة، تحققت تصورات بيت. كان بلاك بيرتون، وهو رجل شرير المزاج وحقود، يبحث عن شجار مع أي وارد جديد عند المشرب، عندما تدخّل ثورنتون، عن طيبة. وكان (بك)، كما هي عادته، متمدّداً في زاوية، رأسه لى مخالبه، مراقباً كل حركة من حركات سيده. فضرب بيرتون، من دون إنذار، باستقامة من الكتف. وانشمر ثورنتون يتلوّى، ولم ينقذ

نفسه من السقوط إلا بالتشبّث بسكة المشرب.

سمع أولئك الذين كانوا يتفرّجون ما لم يكن نباحاً ولا صرخة، وإنما شيئاً أحسن ما يوصف به أنه زئير، كما رأوا جسد (بك) يرتفع في الهواء فيما غادر الأرض بحثاً عن حنجرة بيرتون. وأنقذ الرجل حياته بأن مدّ ذراعه غريزياً، ولكنه سرعان ما طوي ثانية على الأرض و (بك) يعلوه. أعرض (بك) بأسنانه عن لحم الرجل وراح يبحث من جديد عن الحنجرة. وهذه المرّة لم ينجح الرجل إلا في منعه جزئياً، فانشقت حنجرته وغدت مفتوحة. ثم صار الجمهور فوق (بك)، وجرى سحبه بعيداً. ولكن، بينما كان أحد الجراحين يفحص النزف، كان (بك) يندفع صعوداً ونزولاً، هاراً مسعوراً، محاولاً الانطلاق، مضطراً إلى التراجع تحت سيل الهراوات المعادية. وقرر «اجتماع لرجال المناجم» – دُعي للانعقاد في الموقع – إن الكلب قد لقي استفزازاً كافياً، فبُرِّئ (بك). ولكن ترسّخت سمعته، ومنذ ذلك اليوم انتشر اسمه عبر كل مخيّم في ألاسكا.

وفيما بعد، في خريف تلك السنة، أنقذ حياة جون ثورنتون بصورة مختلفة تماماً. كان الشركاء الثلاثة يجهِّزون زورقاً طويلاً وضيقاً، هابطين به امتداداً خطراً من مساقط المياه على (فورتي مايل كريك). تحرّك هانس وبيت على الشاطئ، عاقدين بحبل رفيع ما بين شجرة وأخرى، في حين بقي ثورنتون في الزورق، ممهداً له الهبوط بواسطة عصا، وصارخاً بالتوجيهات إلى الشاطئ. وبقي (بك) – القلق المتلهف – صدراً لصدر مع الزورق، على الشاطئ، وعيناه لا تغادران سيّده قط.

وعند نقطة استثنائية الخطر، حيث كان ينتأ رف من الصخور التي تكاد تكون مغمورة بالماء نحو النهر، أفلت هانس الحبل وركض هابطاً الضفة وفي يده طرف الحبل لكي يشدّ الزورق عندما يتخلّص من الرف الصخري. في حين دفع ثورنتون الزورق بالعصا إلى داخل الجدول. وقد تخلّص الزورق من الرف حقاً، وراح يطير هابطاً الجدول في تيار بقوة تيار الطواحين، وفيما حجزه هانس

بحبل، وكان حجزه إياه مفاجئاً للغاية، انطلق الزورق إلى أعلى، وانفتل صاعداً إلى أسفل الضفة في حين حمل ثورنتون – إذ انقذف إلى خارجه تماماً – أسفل الجدول نحو أسوأ جزء من المساقط، وهو امتداد من الماء لا يستطيع أي سابح أن ينجو فيه.

كان (بك) قد قفز داخلاً للتو، وعند نهاية ثلاثمائة ياردة، وسط دوامة مجنونة من الماء، أخذ يتنصّت لثورنتون. وعندما أحس به وهو يتمسك بذيله، اتجه إلى الضفة، سابحاً بكل قوته الفائقة، ولكن التقدم نحو الشاطئ كان بطيئاً، وكان اندفاع الماء أسفل الجدول سريعاً بشكل مدهش ومن أسفل جاء الهدير المميت، حيث كان التيار المجنون يزداد جنوناً ويتناثر إلى مزق ترش الصخور الناتئة مثل أسنان مشط هائل. كانت قوّة جذب الماء المنحدر، مخيفة. فعرف ثورنتون أن بلوغ الشاطئ كان مستحيلاً. اصطدم بسعار فوق صخرة، وانسدح فوق صخرة ثانية، وارتطم بثالثة بقوة ساحقة. أمسك قمتها الزلقة بكلتا يديه، معتقاً (بك)، وفوق هدير الماء الهائج صرخ:

– «اذهب، يا (بك)، اذهب!».

لم يتمكن (بك) أن يحفظ توازنه، فانكنس أسفل النهر، مناضلاً بيأس، ولكن غير قادر أن يكسب. وعندما سمع أمر ثورنتون يتكرّر، تراجع جزئياً عن الماء، مطوحاً رأسه عالياً، كما لو ليلقي نظرة أخيرة، ثم استدار مطيعاً نحو الضفة. سبح بقوة وجذبه إلى الشاطئ بيت وهانس عند النقطة التي صارت عندها السباحة مستحيلة وبدأ الدمار.

كانا يعرفان أن الوقت الذي يمكن لرجل خلاله أن يتشبث بصخرة زلقة، في وجه ذلك التيار الكاسح، هو مجرد مسألة ثوان، فركضا بأسرع ما يستطيعان، صاعدين الضفة إلى نقطة أعلى كثيراً من المكان الذي كان ثورنتون يتعلق عليه، ربطا الحبل الذي كانا يشدان به الزورق إلى رقبة (بك) وكتفيه، محاذرين ألا يخنقه وألا يعيق سباحته في نفس الوقت، وأنزلاه إلى التيار. انطلق بجرأة،

ولكن ليس مستقيماً بما يكفي إلى داخل التيار. واكتشف (بك) الغلطة متأخراً أحداً، عندما صار ثورنتون صدراً لصدرٍ معه وعلى بعد مجرد عشرين حركة، في حينٍ أنّه كان محمولاً – بصورة تبعث على اليأس – إلى أمام متجاوزاً إياه.

شد هانس الحبل فوراً، كما لو كان (بك) زورقاً. وإذ ضاق الحبل، بذلك، عليه واكتسحه التيار، فقد قذف به تحت السطح، وبقي تحت السطح حتى راح جسده يصفع الضفة فتم إخراجه. كان قد أوشك على الغرق، فألقى هانس وبيت نفسيهما عليه، نافخين النفس فيه وطاردين الماء من جسده، تعثر على قدميه وتهاوى. وبلغهم الحس الخابي لصوت ثورنتون، ومع أنهم لم يفهموا كلماته، إلا أنهم عرفوا أن ذلك كان ذروة صوته. وفعل صوت سيدهِ على (بك) فعل الصعقة الكهربائية. لقد قفز واقفاً وركض صاعداً الضفة أمام الرجلين إلى نقطة انطلاقه السابقة.

ومرة أخرى ربط الحبل وأنزل (بك) إلى الماء، ومرة أخرى انطلق، ولكن هذه المرة مستقيماً إلى التيار، كان قد أخطأ الحساب مرة، ولا يمكنه أن يرتكب ذلك الخطأ مرة أخرى. دفع هانس الحبلِ من دون أن يسمح بأي ارتخاء، في حين حافظ بيت على إبقائه خالياً من العقد. تماسك (بك) حتى صار على خط موازٍ لثورنتونٍ فوقه، ثم استدار، وبسرعة قطار سريع شق الطريق برأسه هابطاً نحوه. رآه ثورنتون يأتي، ثم – إذ صدمه (بك) مثل مطرقة من مطارق هدمِ المباني – بكامل قوة التيار الذي كان وراءه – مد يديه وضمّهما معاً حول العنق الأشعث. شد هانس الحبل حول الشجرة، فانقذف (بك) و (ثورنتون) تحت الماء. مخنوقين، مختنقين، أحدهما إلى فوق حيناً والآخر فوقه أحياناً، شادين فوق القعر المسنن، منسحقين فوق الصخور والنتوءات، متجهين صوب الضفة.

ارتمى ثورنتون، بطنه إلى أسفل، وهزه هانس وبيت بعنف إلى وراء وإلى أمام على جذع حمله الماء. كانت نظرته الأولى موجهة إلى (بك)، الذي كان نيغ يطلق هريراً على جسده المرتخي

والظاهر الموت، في حين كانت سكيت تلعق الوجه الرطب والعينين المغمضتين. كان ثورنتون نفسه مكدوماً ومهروساً، فمضى يتحسّس برفق جسد (بك) وعندما أفاق من غيبوبته، وجدوا فيه ثلاثة أضلاع مكسورة. أعلن:

– «هذا يحل المسألة. سنخيّم هنا». وخيّموا، حتى التأمت أضلاع (بك) وصار بمقدوره أن يسافر.

في ذلك الشتاء، في داوسن، أدى (بك) عملاً آخر، لم يكن بتلك البطولة، ربما، إنما كان عملاً بطولياً رفع اسمه عدة درجات على مسلة[٩] الشهرة الألسكية. كان ذلك العمل مبهجاً بشكل خاص للرجال الثلاثة، لأنهم كانوا بحاجة للمال الذي وفّروه، ومكّنهم من القيام برحلة طالت الرغبة فيها إلى الشرق البكر، حيث لم يكن رجال المناجم قد ظهروا بعد. وقد أدى إلى وقوعه حديث جرى في صالون (الـدورادو)، ازدادت فيه ادعاءات الرجال عن كلابهم المفضلة. كان (بك)، يسبب سجله، هدف أولئك الرجال، وقد دفع الفخر بثورنتون إلى الدفاع عنه. وعند نهاية نصف ساعة صرح رجل بأن كلبه يمكن أن يحرك زلاجة عليها خمسمائة رطل ويسير بها، وزعم آخر لكلبه ستمائة رطل، وثالث سبعمائة. فقال جون ثورنتون:

– «بوه! بوه! يستطيع (بك) أن يحرّك ألف رطل».

فسأل (ماثيوسون) وهو أحد ملوك المناجم، وصاحب ادعاء السبعمائة رطل:

– «ويكسر الجليد عنها؟ ويمشي بها مسافة مائة ياردة؟»، فقال جون ثورنتون ببرود:

– «ويكسره عنها، ويمشي بها مائة ياردة». فقال ماثيوسون، ببطء وتعمد، لكي يسمع الجميع:

---

(٩) مسلة كان يستخدمها الهنود الحمر في الأصل لنقش صور ورموز طواطمهم عليها.

– «حسناً. إن لدي ألف دولارٍ وهي تقول إنه لا يستطيع. ها هي». وإذ قال هذا، ضرب كيساً من تراب الذهب بحجم سجق بولونا[١٠]، على المشرب.

لم يتكلّم أحد. لقد جرى الرد على بلف ثورنتون، إن كان يبلف. كان بمقدوره أن يحس دماً دافئاً يزحف صاعداً وجهه. لقد ورّطه لسانه. لم يكن يدري إن كان (بك) يستطيع أن يحرّك ألف رطل. نصف طن!

أخافته ضخامتها. كانت له ثقة عظيمة في قوة (بك)، ولقد طالما اعتبره قادراً على تحريك مثل هذا الحمل، لكنه لم يسبق له قط أن واجه إمكانية قيامه بذلك، مثلما يواجه الآن، وعيون عشرة رجال مثبتة عليه، صامتة تنتظر. وإضافة إلى ذلك، فلم يكن لديه ألف دولار، ولا كان لدى هانس أو بيت.

واستمر ماثيوسون بتحديد قاس:

– «إن لدي زلاجة تقف بالخارج الآن، وعليها عشرون كيس طحين من ذوات الخمسين رطلاً، وهكذا: فلا تجعل هذه المسألة تعوقك».

لم يرد ثورنتون، لم يكن يعرف ما يقول. نقل بصره من وجه إلى وجه، كرجل فَقَد قوة التفكير فراح يبحث عن المكان الذي يجد فيه الشيء الذي يعيده إلى العمل. فظهر أمام عينيه وجه (جيم أوبراين)، وهو ملك مناجم بحجم الفيل ورفيق قديم. كان وجهه حافزاً له، وبدا كأنه يثيره ليفعل ما لم يكن ليحلم بالقيام به. فسأل بهمس تقريباً:

– «أتستطيع أن تقرضني ألفاً». فرد أوبراين، وهو يطرح كيساً منتفخاً إلى جانب كيس ماثيوسون:

– «بالتأكيد. مع أن ما لدي من ثقة قليل، يا جون، بأن بمقدور ذلك الحيوان أن يلعب اللعبة».

أفرغ الالـدورادو رواده إلى الشارع كي يروا الامتحان.

---

(١٠) النسبة إلى بولونا في إيطاليا. وسجقها كبير الحجم.

هجرت المناضد، وتقدم التجار ومسؤولو الألعاب ليروا نتيجة الرهان ويقيموا مراهنات خاصة بهم. تراصف بضع مئات من الرجال، متلفعين بالفراء، مكسوي الأيدي بالقفازات، على بعد قريب إلى جانبي الزلاجة. كانت زلاجة ماثيوسون، المحملة بألف رطل من الدقيق، تقف منذ ساعتين، وفي البرد المطبق (كانت درجة الحرارة ستين تحت الصفر) تجمّدت ألواح التزحلق البرد المطبق (كانت درجة الحرارة ستين تحت الصفر) تجمّدت ألواح التزحلق لتثبت مندمجة بالجليد الصلب المرصوص. عرض الرجال اثنين مقابل واحد على أن (بك) لن يستطيع أن يحرك الزلاجة. ونشأ جدال لغوي فيما يتعلق بكلمة «يكسر». جادل أوبراين بأن من حق ثورنتون أن يرخي لوحي الانزلاق، تاركاً (بك) «يكسر عنها فيحررها» من نقطة سكون ميتة. وأصر ماثيوسون على أن العبارة تشمل تحرير اللوحين من قبضة الجليد المتجمدة. وكان قرار أغلبية الرجال، الذين شهدوا انعقاد الرهان، لصالحه، فارتفع الرهان إلى ثلاثة مقابل واحد ضد (بك).

لم يكن ثمة من يراهن. لم يكن أحد ليعتقده قادراً على العمل العظيم. كان ثورنتون قد سيق إلى الرهان على عجل، مثقلاً بالشك، والآن – إذ هو أمام الزلاجة مباشرة، أمام الحقيقة الملموسة، والفريق الاعتيادي المكوّن من عشرة كلاب تتحلّق في الثلج أمامها – ازداد اتضاح استحالة المهمة أمامه. وراح ماثيوسون يشع انتصاراً. أعلن:

– «ثلاثة إلى واحد! سأضع أمامك ألفاً أخرى على ذلك الرقم، يا ثورنتون. ماذا تقول؟».

كان شك ثورنتون يلوح قوياً في وجهه، ولكن روحه القتالية قد أثيرت – روح القتال التي تحلّق فوق نسب الرهان، ولا تفهم المستحيل، والصماء تجاه كل شيء عدا ضجيج المعركة. استدعى هانس وبيت إليه. كان كيساهما نحيلين، ومع كيسه لم يستطع الشركاء الثلاثة أن يجمعوا معاً غير مائتي دولار، كان هذا المبلغ كل

رأسمالهم، ومع ذلك فقد وضعوه متردّدين ضد ستمائة ماثيوسون.

جرى فك وثاق فريق العشرة الكلاب ووضع (بك)، بسراجته الخاصة، أمام الزلاجة. كان قد التقط عدوى الانفعال، وشعر أنه، بشكل ما، ينبغي أن يفعل شيئاً عظيماً لجون ثورنتون. تصاعدت همهمات الاعجاب بمظهره الممتاز، كان في أتم حال، ليست عليه أوقية من اللحم الزائد، وكانت المائة والخمسون الرطل التي يزنها مائة وخمسين رطلاً من الصلابة والفحولة. كان معطفه الفرائي يشع ببريق الحرير، وأسفل الرقبة، عبر الكتفين، كان شعر عنقه - عندما كان يسترخي طلباً للراحة - يقف ويبدو كأنه يرتفع مع كل حركة، كما لو أن زيادة الحيوية تجعل كل شعرة منفردة حية وفاعلة. لم يعد الصدر العظيم والقائمتان الأماميتان الثقيلتان تتناسب مع باقي الجسد، حيث كانت العضلات تظهر في طيات شديدة تحت الجلد، تحسّس الرجال تلك العضلات فأعلنوا أنها كالحديد، فهبط الرهان إلى اثنين مقابل واحد.

وقال أحد أعضاء السلالة الأخيرة، أحد ملوك مناجم الذهب الكبرى، وهو يتوقف عن الكلام بين آونة وأخرى:

- «الله، يا سيدي! الله، يا سيدي! إنني أعرض لك ثمانمائة فيه، يا سيدي، قبل الاختبار، يا سيدي، ثمانمائة كما هو تماماً».

هز ثورنتون رأسه وتقدم إلى جانب (بك). فاحتج ماثيوسون:

- «يجب أن يقف بعيداً عنه، لعب نظيف، ومكان واسع».

خيّم على الجمهور صمت، لم يعد يُسمع غير صوت المقامرين يعرضون - خائبين - اثنين مقابل واحد. اعترف الجميع بـ (بك) حيواناً رائعاً. ولكن عشرين كيس دقيق من ذوات الخمسين رطلاً كانت أكبر في عيونهم من أن ترخي خيوط أكياس نقودهم.

ركع ثورنتون إلى جانب (بك). أخذ رأسه بيديه وأراح الوجنة على الوجنة. لم يهزه ملاعباً، كما كانت عادته، أو يهمهم بلعنات حب ناعمة، ولكنه همس في أذنه:

– «كما تحبني، يا (بك)، كما تحبني». فراح (بك) يتملق بلهفة مكبوتة.

كان الجمهور يراقب بفضول. كان الأمر يزداد غموضاً. كان يبدو مثل السحر. وفيما نهض ثورنتون على قدميه، أمسك (بك) بيده المغلفة بالقفاز بين فكيه، ضاغطاً إياها بأسنانه ومطلقاً إياها ببطء، بشبه تحفظ. كان ذلك هو الجواب، لا بالكلام، بل بالحب. تراجع ثورنتون بعيداً إلى الوراء، وقال:

– «الآن، يا (بك)».

شد (بك) الأعنة، ثم أرخاها بضع بوصات. كانت تلك هي الطريقة التي تعلّمها. ورن صوت ثورنتون، حاداً في الصمت الشامل:

– «امض!».

مال (بك) إلى اليمين، منهياً الحركة بطفرة وتّرت الارتخاء وبنترة مفاجئة أوقفت أرطاله المائة والخمسين. اهتز الحمل، ومن تحت لوحي الانزلاق ارتفع صوت تهشم حاد. وأمر ثورنتون:

– «هاو!».

كرر (بك) المناورة، إلى اليسار هذه المرة. تحول صوت التهشم إلى صوت طحن، بينما كانت الزلاجة تهتز واللوحان ينزلقان ويحكان بضع بوصات إلى جانب. لقد انكسر الجليد عن الزلاجة. كان الرجال يمسكون أنفاسهم، غير واعين – من الذهول – تلك الحقيقة:

– «الآن، انطلق!».

دوى أمر ثورنتون كطلقة مسدس. رمى (بك) نفسه إلى أمام، شاداً الأعنة بوخزة زاعقة. تجمع كل بدنه مرصوصاً معاً في الجهد الهائل، والعضلات تتلوى وتتحاك مثل أشياء حية تحت الفراء الحريري. كان صدره العظيم منخفضاً إلى الأرض، ورأسه إلى أمام وأسفل، في حين كانت أقدامه تتطاير مجنونة، ومخالبها تجرح الجليد المرصوص صكاً في خطوط متوازية. اهتزت الزلاجة

وارتعشت، ونصف حركة تحركت إلى أمام. زلقت إحدى قدميه، فحشرج رجل بصوت عال. ثم انسلت الزلاجة قدماً فيما بدا تتابع نترات سريعة، مع أنها لم تقف ثانية حقاً.. نصف بوصة.. بوصة.. بوصتان... تلاشت النترات بشكل ملحوظ فيما حصلت الزلاجة على قوة اندفاع، وجمعها (بك) حتى راحت تحرك باضطراد.

فغر الرجال أفواههم وبدأوا يتنفسون ثانية، غير مدركين أنهم كفّوا دقيقة عن التنفس. كان ثورنتون في الـوراء، يشجع (بك) بكلمات قصيرة مرحة. قيست المسافة، وفيما اقترب من كومة خشب الوقود التي كانت نهاية المائة ياردة، بدأ صراخ يعلو، ثم انفجر في زئير عندما اجتاز كومة الخشب ووقف بناء على أمر صادر. كان كل رجل يطلق لنفسه العنان، حتى ماثيوسون. كانت القبعات والقفازات تتطاير في الهواء. كان الرجال يتصافحون، لا يهم مع من، ويدوون في لغط، غير مترابط، عام.

ولكن ثورنتون هوى على ركبتيه إلى جانب (بك). كان الرأس على الرأس، وكان يهزه إلى أمام وإلى وراء. وقد سمع أولئك الذين أسرعوا مقتربين، سمعوه يشتم (بك)، ولقد شتمه طويلاً وبحرارة، وناعماً وبمحبة.

وراح عضو السلالة الأخيرة، ملك المناجم الكبرى، يهذر:

- «يا رب، يا سيدي! يا إلهي، يا سيدي! سأعطيك به ألفاً، يا سيدي، ألفاً، يا سيدي - ألفاً ومائتين، يا سيدي».

نهض ثورنتون على قدميه. كانت عيناه مبللتين. كانت الدموع تجري بشكل ظاهر فوق وجنتيه. فقال للملك المناجم الكبرى:

- « كلا يا سيدي. يمكنك أن تذهب إلى الجحيم، يا سيدي. ذلك خير ما أستطيع أن أفعله لك يا سيدي».

أمسك (بك) يد ثورنتون بأسنانه. هزه ثورنتون إلى وراء وإلى أمام. وكما لو أن المتفرجين قد تحركوا بباعث مشترك، فقد انسحبوا إلى مبعدة تحفظ الاحترام، ولم يعودوا غير متحفظين مرة أخرى بحيث يتطفلون.

٧- تردد النداء

عندما حصل (بك) على ألف وستمائة دولار لجون ثورنتون خلال خمس دقائق، مكّنِ سيّده من تسديدٍ ديون معيّنة نتجت عن السفر مع شريكيه متوغلاً في الشرق سعياً وراء منجم مفقود أسطوري، كان تاريخ الكنز بنفس قِدم تاريخ البلاد. كان عدّة رجال قد بحثوا عنه، وقد وجدته قلّة منهم، وكان أكثرهم لم يعودوا قط من البحث. كان هذا المنجم المفقود قد انغمر بالمأساة وتلفع بالغموض. لم يكن أحد ليعرف قط الرجل الأول. إن أقدم رواية تتوقف قبل أن تبلغه، منذ البداية كانت ثمة مقصورة عتيقة ومتداعية. وكان رجال محتضرون قد أقسموا على وجودها، وعلى وجود المنجم الذي كان موقعها يدل عليه، معززين شهاداتهم بكتل ذهبية لا تشبه أية درجة معروفة من الذهب في الشمال.

ولكن لم ينهب بيت الكنز ذاك أي إنسان حي، وكان الموتى موتى، في حين أن جون ثورنتون وبيت وهانس، مع (بك) ونصف دزينة أخرى من الكلاب، اتجهوا نحو الشرق على طريق مجهول ليفوزوا بما أخفق في أن يحققه رجالٌ وكلاب جيدونٍ مثلهم. زحفوا صاعدين الـ (يوكون) سبعين ميلاً، والتفّوا يساراً إلى نهر (ستيورات)، وعبروا الـ (مايو) و الـ (ماك كويستشن)، وواصلوا حتى أصبحت الستيورات نفسه جدولاً صغيراً، متضائلاً ليصير كالخيط وهو يعبر القمم الناهضة التي تؤشّر إلى العمود الفقري للقارة.

كان جون ثورنتون قليل الطلب من الناس ومن الطبيعة. لم يكن يخشى الوحوش. كان يمكنه، بحفنة من الملح وبندقية، أن يخوض في الخلاءِ الموحش ويسافر حيث يحب وبقدر ما يحب. وإذ لم يكن مستعجلاً، فقد كان يصطاد – شأنه شأن الهنود – عشاءه أثناء سفر

النهار، وإن أخفق في الحصول عليه، كالهنود، كانٍ يستمر في السفر، مطمئناً إلى معرفته بأنه سيعثر عليه إن عاجلاً أو آجلاً. وهكذا، فأثناء هذه السفرة العظيمة إلى الشرق، كان اللحم الخالص هو لائحة الطعام، وكانت الذخيرة والعدة هي المكونات الرئيسة لحمل الزلاجة، وكانت بطاقة الوقت مرسومة على المستقبل اللامحدود.

كان ذلك بهجة لا محدودة لـ (بك)، هذا الصيد وصيد الأسماك والتجوال غير المقيّد وعبر الأماكن الغريبة. طيلة أسابيع في كل مرة، كانوا يواصلون بإطراد، يوماً بعد يوم، وطوال أسابيع متواصلة كانوا يخيمون، هنا وهناك، الكلاب تتسكّع والرجال يحرقون الفجوات عبر قاذورات وحصى متجمدة ويغسلون أوعية عديدة مصنوعة من التراب بحرارة النار. أحياناً، كانوا يمضون جائعين، وكانوا يأكلون بصخب أحياناً، كان ذلك وفقاً لوفرة الطرائد وحظ الصيد. وحَلّ الصيف، وشد الكلاب والرجال على ظهورهم أمتعة، وانتقلوا بالعبارات عبر بحيرة جبلية زرقاء وصعدوا أو هبطوا أنهاراً مجهولة في زوارق نحيلة قطعت أخشابها من الغابة القائمة.

كانت الشهور تأتي وتذهب، وكانوا يدورون ويلتفون وراء وأمام عبر الاتساع اللامحدود، حيث لم يكن ثمة رجال وحيث – مع ذلك – كان ثمة رجال إن كانت المقصورة المفقودة حقيقة. انتقلوا عبر مفترقات مياه في رياح صيفية، وارتعشوا تحت شمس نصف الليل على الجبال الجرداء بين خط الغابة والثلوج الأبدية، وهبطوا إلى وديان صيفية وسط بعوض وذباب حاشد. وفي ظلال الثلاجات[١١] كانوا يلتقطون التوت الشوكي والورود الناضجة والحلوة بقدر ما يمكن للجنوب أن يباهي بتوته ووروده. وفي خريف السنة كانوا يتوغلون في ريف غريب من بحيرات، حزين وصامت، حيث كانت تحوم الطيور البرية، ولكن حيث لم تكن – حينئذ – أية حياة

---

(١١) الثلج الذي يتجمّع ولا يذوب لأنه يكون في مناطق يتساقط فيها الجليد فيتجمّع بأسرع ممّا يذوب الساقط قبله.

أو علامة على وجود الحياة. غير صفير الرياح الباردة، وطبقات الجليد في الأماكن المضللة، والتكسّر الحزين للأمواج على الشواطئ المهجورة.

وخلال شتاء آخر تجوّلوا فوق الطرق الممحوة للرجال الذين مضوا من قبل. وذات مرة، مرّوا بممر محروق عبر الغابة، ممرّ عتيق، وبدت المقصورة المفقودة قريبة جداً. ولكن الممر بدأ من لامكان ولم ينته إلى مكان، وبقي غموضاً، كما بقي الرجل الذي أعدّه والسبب الذي أعدّه من أجله غموضاً. ومرّة أخرى صادف أن صاروا فوق الحطام الذي نحته الزمن لمقصورة صيد، ووسط خرق البطانيات الممزّقة وجد جون ثورنتون بندقية حجرية ذات اسطوانة طويلة. ميّز فيها بندقية من إنتاج شركة (هدسون باي) لأيام الصبا في الشمال الغربي، حيث كانت مثل هذه البندقية تساوي في قيمتها وزنها من جلود الخنوص المرزومة وهي مبسوطة. وكان ذلك كل ما وجده – دون أثر للرجل الذي أنشأ ذات يوم سابق المقصورة وترك البندقية بين البطانيات.

وحل الربيع ثانية، وعند انتهاء كلٍ تجوالهم وجدوا – لا المقصورة المفقودة فقط – ولكن، مستقراً ضحلاً للماء الذي يحمل المعدن في واد عريض، حيث كان الذهب يشع مثل الزبدة الصفراء عبر قعر إناء الغسيل. لم يفتّشوا أبعد من ذلك. كان كل يوم يشتغلونه يؤدي بهم إلى كسب آلاف الدولارات في شكل تراب معدن نظيف، كانوا يشتغلون كل يوم. وكانٍ يتم تكييس الذهب في حقائب من جلد بقر الوحش، خمسين رطلاً في الحقيبة الواحدة، ويكوّمونه مثل خشب الوقود المتراكم خارج مقصورة الجذوع المنمّقة. كدحوا كالعمالقة، والأيام تدرج في أعقاب الأيام كالأحلام، فيما كانوا يرفعون كومة الكنز أعلى فأعلى.

لم يكن على الكلاب أن تفعل شيئاً، غير ابتلاع اللحم الذي كان يصطاده جونٍ ثورنتون، بين آونة وأخرى، وكان (بك) يقضي ساعات طوالاً شارد الذهن عند النار. كانت صورة الرجل قصير

الساقين، المشعر، تأتيه باضطراد، بينما كان أمامه عمل أقل الآن، وغالباً ما تجول معه – وهو يرمش إلى جانب النار – في ذلك العالم الآخر الذي كان يتذكره.

كان الشيء البارز من ذلك العالم الآخر هو الخوف فعندما كان (بك) يراقب الرجل المشعر نائماً إلى جانب النار، ورأسه بين ركبتيه ويداه مشبكتان فوقه، كان يراه نائماً دون ارتياح، يقوم بعدّة حركات وصحوات، وهي الأوقات التي كان يتطلّع أثناءها، بخوف، في الظلمة ويلقي مزيداً من الخشب في النار. وإذ كانوا يسيرون على شاطئ البحر، كان الرجل المشعر يجمع صدف المحار ويأكل المحار فيما هو يجمع، فيما كانوا يفعلون ذلك بعيون تنهب كل مكان بحثاً عن خطر خفي، وبسيقان مستعدة لا، تجري كالريح عند أول ملمح لذلك الخطر. عبر الغابة راحوا يزحفون دون ضوضاء، و(بك) عند عقبي الرجل المشعر، كانا متيقظين وحذرين، كلاهما، آذانهما تتخطف وتتحرك ومناخرهما ترتعش، لأن الرجل كان من حدة السمع والشم كما هو (بك). كان بمقدور الرجل المشعر أن يقفز إلى داخل الأشجار ويسافر قدماً بأسرع ما يمكن على الأرض، متحركاً عند الذراعين من طرف لطرف، وأحياناً رغم ابتعاد طرفيه عن بعضهما عشرة أقدام، يمسك الأغصان ويفلتها، من دون أن يسقط قط، من دون أن تضيع قبضته. وفي الحقيقة، كان يبدو في مكانه الطبيعي وهو بين الأشجار بقدر ما يبدو كذلك على الأرض، وكانت لـ (بك) ذكريات عن ليال من الحذر قضاها تحت الأشجار حيث استقر الرجل المشعر، متمسِّكاً بشدة فيما كان نائماً.

وقريباً بشكل وثيق من رؤى الرجل المشعر، كان النداء الذي لا يزال يتردّد في أعماق الغابة. وقد جعله ذلك يحس سروراً غائماً حلواً، وكان يدرك الالتياعات والميول الوحشية لسبب لا يعرفه. وأحياناً كان يتبع النداء إلى الغابة، ناظراً إليه كما لو كان شيئاً ملموساً، وهو ينبح بنعومة أو بجرأة، كما كان المزاج يفرض. كان يدس أنفه في الأعشاب الباردة، أو في التربة السوداء حيث كانت

الأعشاب الطويلة تنمو، وينخر بفرح في روائح الأرض السمينة، أو أنه كان يقعي ساعات، كما لو كان يختفي، وراء جذوع الأشجار الساقطة المغطاة بالفطرٍ متسع العينين متسع الأذنين نحو كل ما كان يتحرك ويحدث صوتاً حوله. ربما كان، وهو يتمدّد كذلك، يأمل أن يفاجئ ذلك النداء الذي ما كان ليفهمه. ولكنه لم يكن يدري لم كان يفعل تلك الأشياء المختلفة. كان مضطراً للقيام بها، ولم يفكر فيها قط.

تملّكته دوافع لا تقاوم. كان يحدث أن يكون مستلقياً في المخيم، مقيِّلاً بكسل في حرارة النهار، عندما يرتفع رأسه فجأة وتنتصب أذناه، مُركِّزتين ومُصغيتين، فكان يقفز واقفاً وينطلق بعيداً، مستمراً ومستمراً، طوال ساعات، عبر نياسم الغابة وعبر الفضاءات المكشوفة حيث كانت الصخور المدورة السوداء تبرز ناتئة. كان يعشق الجري هابطاً مع مجاري المياه الجافة، والزحف والتجسّس على حياة الطيور في الغابات. وطوال نهار كامل كل مرة كان يستلقي بين الأجمة حيث كان بمقدوره أن يراقب الدرج وهو يخفق ويتبختر صعوداً وهبوطاً. ولكنه كان يعشق على الخصوص أن يعدو في شبه عتمة منتصف ليالي الصيف، مصغياً إلى همهمات الغابة المتلاشية والناعسة، قارئاً العلامات والأصوات كما يقرأ الإنسان كتاباً، وباحثاً عن شيء ما غامض كان ينادي، يناديه أن يأتي، سواء أكان مستيقظاً أم نائماً، وفي كل الأوقات.

ذات ليلة نهض من نومه مجفلاً، متلهف العينين، ومنخراه يرتعشان ويتشممان، وعرفه يقف في أمواج متذبذبة. من الغابة جاء النداء (أو إحدى صيحاته، لأن النداء كان متعدد الصيحات)، مميزاً ومحدداً عما كان سابقاً تماماً - عواء مجروراً طويلاً مثل - ومع ذلك لم يكن مثل - أية ضجة يحدثها كلب هوسكي. وكان يعرفه، بالطريقة القديمة المألوفة، بوصفه صوتاً مسموعاً من قبل. قفز عبر خيمة النوم، وَبِعَدْوٍ سريع انطلق عبر الغابة. وفيما اقترب من الصرخة راح يبطئ، بحذر في كل حركة، حتى وصل إلى مكان

مفتوحٍ بين الأشجار، ونظر إلى الخارج فرأى ذئب غابات، طويلاً نحيلاً، منتصباً على أربع، وأنفه يشير إلى السماء.

لم يكن قد أحدث ضجة، ومع ذلك كف الذئب عن عوائه وحاول أن يتحسس حضوره. انسل (بك) متلصصاً إلى العراء، وقد تجمع جسده متماسكاً، مستقيم الذنب، وقدماه تسقطان بعناية غير مألوفة. كانت كلّ حركة تعلن عن تهديد وتعبير عن صداقة متشابكين، كانت الهدنة المهدّدة هي التي تؤشر لقاء الوحوش الضارية التي تفترس. ولكن الذئب هرب عند مرآه. تبعه بقفزات متوحشة، في سعار للحاق، تبعه إلى ممر مسدود، في حوض الجدول، حيث كان نتوء خشب يسد الطريق. دار الذئب حول نفسه، مرتكزاً على قوائمه الخلفية على طريقة (جو) وكلّ كلاب الهوسكي حين تنحصر في زاوية، عاوياً، قافّ الشعر، صارّاً أسنانه معاً في تتابع للعضّات مستمر وسريع.

لم يهاجم (بك)، ولكنه أحاطه وطوقه إلى الداخل بملاطفاته الودية. كان الذئب مرتاباً وخائفاً، لأن (بك) كان يعادله ثلاث مرات وزناً، في حين كان رأسه بالكاد يبلغ كتف (بك). وإذ كان يبحث عن فرصته، فقد فر مبتعداً، واستؤنفت المطاردة. انحصر في زاوية مرة واحدة، وتكرر ذلك. ومع أنه كان في حالة مزرية إلا أن (بك) ما كان ليتمكن من التغلب عليه بيسر. كان يركض حتى يصير رأس (بك) بمستوى ساقه، حيث يدوِّم حوله في الأرض الخلاء، لا لشيء إلا لينطلق ثانية عند أول فرصة.

ولكن في النهاية كوفئت مثابرة (بك)، لأن الذئب – حين وجد أنه لم يكن يقصد أي أذى – أخيراً راح يشم أنفه. ثم تواددا، وراحا يلعبان بالطريقة العصبية، نصف الحيية، التي تخفي بها الوحوش الضارية ضراوتها، وبعد هذا بوقت قصير بدأ الذئب يبتعد بخطوات طويلة يسيرة بكيفية كانت تبين بوضوح أنه كان ذاهباً إلى مكان ما. وبين لـ(بك) بصورة واضحة أنه مسموح له المجيء، فركضا جنباً إلى جنب عبر شبه العتمة الداكنة، صاعدين حوض الجدول باستقامة،

إلى المنخفض الذي كان ينبع منه، وعبر منشعب الماء المفتوح الذي كان يأخذ منه ارتقاءه.

وعلى المنحدر المقابل لمسقط الماء هبطا إلى ريف مستو كانت فيه امتدادات عظيمة من الغابة وجداول عديدة، وخلال هذه الامتدادات العظيمة راحا يركضا باتزان، ساعة بعد ساعة، والشمس تشرق أعلى فأعلى والنهار يزداد دافئاً. جرى (بك) بوحشية. كان يعرف أنه يردّ أخيراً على النداء، جارياً إلى جانب شقيقه في الغاب نحو المكان الذي كان يأتي منه النداء بالتأكيد. كانت ذكريات قديمة تأتيه سريعاً، وكان يستجيب لها كما كان يستجيب في الماضي للوقائع التي كانت هذه الذكريات ظلالها. كان قد فعل هذا الشيء قبلاً، في مكان ما من ذلك العالم الآخر الغائم الذكرى، وها هو يفعله ثانية، الآن، إذ يجري حراً في العراء، والأرض المضغوطة تحت قدميه، والسماء الواسعة فوق رأسه.

وقفا عند جدول جار ليشربا، وإذ وقف (بك)، فقد تذكر جون ثورنتون. جلس. انطلق الذئب نحو المكان الذي كان النداء ولا شك يأتي منه، ثم عاد إليه، متشمماً أنفه ومؤدياً حركات كما لو كان يشجعه. ولكن (بك) استدار واتجه بطيئاً نحو الممر الخلفي. وطوال ساعة تقريباً كان الشقيق الوحشي يركض إلى جانبه، يئن بنعومة، ثم جلس، ورفع أنفه إلى أعلى، وهر هريراً حزيناً، وإذ واصل (بك) طريقه، سمعه يخبو ويخبو حتى ضاع في البعيد.

كان جون ثورنتون يتناول العشاء عندما اندفع (بك) إلى المخيّم وقفز عليه في سعار من الهيام، قالباً إياه، زاحفاً فوقه، لاعقاً وجهه، عاضاً يده - «عارضا الحماقة العامة»، كما كان جون ثورنتون يصف ذلك - فيما كان هو يهز (بك) إلى أمام وإلى وراء ويشتمه بمحبة.

طيلة يومين وليلتين لم يغادر (بك) المخيم، لم يترك ثورنتون يبتعد عن ناظريه. كان يتبعه في عمله، يراقبه وهو يأكل، يراه عندما يلتف ببطانياته مساء وعندما يخرج منها في الصباح، ولكن

بعد يومين بدأ النداء في الغابة يرن بإلحاح أكثر من السابق. وعاود (بك) قلقه، وسكنته ذكريات الشقيق الوحشي، وذكريات الأرض الباسمة وراء المنشعب والركض جنباً إلى جنب عبر امتدادات الغابة الوسيعة. مرة أخرى انصرف إلى التجوال في الغابة، ولكن الشقيق الوحشي لم يأت ثانية، ومع أنه أصغى عبر اليقظات الطويلة، إلا أن العواء الحزين لم يرتفع قط.

بدأ ينام في الخارج ليلاً، باقياً خارج المخيّم عدة مرات. وذات مرة اجتاز منشعب الماء عند رأس الجدول وهبط إلى أرض الخشب والجداول. هناك بقي يتجوّل أسبوعاً. باحثاً من دون جدوى عن علامة جديدة للأخ الوحشي، قاتلاً لحمه وهو يسافر ويسافر بخطوات طويلة يسيرة كان يبدو أنها لا تتعبه قط. اصطاد السالمون(١٢) من جدول عريض كان يصب في مكان ما بالبحر، وإلى جانب هذا الجدول قتل دباً أسود كبيراً، أعماه البعوض حينما كان يصطاد السمك هو الآخر فانطلق عبر الغابة يائساً ومرتعباً. وحتى في تلك الحال، كان القتال صعباً، وقد أثار آخر البقايا الكامنة من ضراوة (بك). وبعد يومين، عندما عاد إلى ضحيته وجد عشر من بنات آوى تتعارك على ما اغتصبت، بعثرها وكأنها قش.. وخلف المنهزمون وراءهم اثنين لن يتعاركا بعد قط.

اشتد الاشتياق للدم كثيراً عن السابق. صار قاتلاً، شيئاً مفترساً، يحيا على الأشياء الحية، لا يساعده أحد، وحيداً، بفضل قوته ومقدرته ذاتهما، باقيا بانتصار في بيئة معادية لا يبقى فيها غير القوي. وبسبب هذا كله صار يتملكه فخر عظيم بذاته، وربط نفسه بوجوده المادي مثل مرض. ولقد أعلن عن نفسه في كل حركاته، وكان يتجلى في لعبة كل عضلة، ويتحدث ببساطة كما الحديث بالطريقة التي كان يحمل فيها نفسه، فيجعل معطفه الفرائي العظيم أكثر عظمة، إن كان ذلك ممكناً. ولكن بسبب البقعة البنية المنعزلة

---

(١٢) السمك الصغير: المعروف.

على بوزه وفوق عينيه، وبسبب كتلة الشعر الأبيض التي كانت تنساب إلى الوسط نازلة فوق صدره، كان يمكن أن يخطئه الرائي فيظنه ذئباً عملاقاً أكبر من أكبر كلاب سلالته. لقد ورث من أبيه الـ(سان برنار) الحجم والوزن، ولكن أمه الـ(رعوية) هي التي منحت حجمه ووزنه شكلاً. كان بوزه البوز الذئبي الطويل، فيما عدا أنه كان أوسع من بوز أي ذئب، وكان رأسه، الأعرض نوعاً ما، هو رأس الذئب على نطاق ضخم.

كانت جرأته جرأة ذئب، وجرأة وحشية، وكان ذكاؤه ذكاء كلب راع وذكاء كلب سان برنار، كل هذا، زائداً خبرة اكتسبت في أضرى المدارس، هي التي جعلته مخلوقاً مخيفاً بقدر إخافة أي مخلوق يجتاح البداءة. الحيوان المفترس، والذي يحيا على حمية من اللحم الخالص، كان في أقصى ازدهاره، عند المد الأعلى لحياته، يفيض حيوية وعراماً. عندما كان ثورنتون يمد يداً معانقة على ظهره، وتتلو اليد طقطقة وهسيس، كانت كل شعرة تفرغ مغناطيسيتها الخاصة عند الاتصال. كان كل جزء، الذهن والجسد، شعرة حس أو نسيج، مفتاحاً للأعماق الأكثر تفرداً، وبين كل الأجزاء كان ثمة توازن كامل أو تكيف تام. أما المناظر والأصوات والأحداث التي تتطلّب عملاً فكان يستجيب لها بسرعة كالوميض. إن السرعة التي يمكن لكلب هوسكي أن يقفز لكي يحتمي من هجوم أو ليهجم، كان هو يقفز بضعفها سرعة. كان يرى الحركة أو يسمع الصوت، فيستجيب في وقت أقل مما يتطلبه كلب آخر لاستيعاب مجرد الرؤية أو السماع . كان يتأمل ويقرّر ويستجيب في نفس اللحظة. وفي الحقيقة، كانت الأعمال الثلاثة: من تأمل وقرار واستجابة، تتابعية، ولكن الفترات الزمنية بينها كانت من الضآلة بحيث كانت تبدو متزامنة. كانت عضلاته محمّلة أكثر من اللازم بالحيوية، ومتحفِّزة للعمل بحدّة، مثل نوابض فولاذية. كانت الحياة تجري عبره في فيض باهر، فرحة وعارمة، حتى لكانت تبدو أنها ستفجره حتى يتناثر في شبق مجرد، فتنهمر مندلقة بسخاء على العالم.

- «لم يحدث قط أن وجد كلب كهذا»، قال ذلك جون ثورنتون ذات يوم، فيما كان الشركاء يراقبون (بك) وهو يخرج من المخيّم. فقال بيت:

- «عندما تمّ صنعه، انكسر القالب». وأكد هانس:

- «بحق الله! أظن ذلك أنا نفسي».

رأوه يخطو خارجاً من المعسكر، ولكنهم لم يروا التحوّل الآني والرهيب الذي وقع له بمجرد أن دخل غموض الغابة. لم يعد يخطو، لقد صار للتو شيئاً وحشياً، ينسل بنعومة، بإقدام القطط، ظلاً عابراً كان يظهر ويختفي بين الظلال. كان يعرف كيف يستفيد من كل غطاء، أن يزحف على بطنه كالأفعى وأن ينط كالأفعى فيضرب. كان بمقدوره أن يأخذ حمامة برية من عشها، وأن يقتل أرنباً وهو نائم، وأن يلقف - في الهواء - الحيوانات الصغيرة عندما تتأخر ثانية واحدة في هروبها نحو الأشجار. ولم تكن الأسماك، في البحيرات المكشوفة - سرية جداً عليه، كما لم تكن السناجب - حين تصلح أعشاشها - شديدة الحذر بالنسبة له. كان يقتل ليأكل، لا بطراً، ولكنه كان يفضل أن يأكل ما يقتله هو نفسه. وهكذا، فقد كان مزاج متوثب يتخلل أفعاله، وقد كان من دواعي سروره أن يتلصص على السناجب وعندما يوشك أن يجعلها في قبضته يتركها تنطلق، مصوتة بخوف مميت، إلى ذرى الأشجار.

وفيما تقدّم الخريف، صار الوعل البري يظهر بكثرة أكبر، متحرِّكاً ببطء ليلاقي الشتاء في الوديان الأوطأ والأقل عرامة. كان (بك) قد سحب إلى أدنى عجلاً فتياً، منفرداً، ولكنه كان يتمنى - بقوة - طريدة أكبر وأصعب منالاً، وقد لقيها ذات يوم على منشعب الماء عند رأس الجدول. كانت عصابة من عشرين وعلاً برياً عبرت نحوه من أرض الجداول والخشب، وكان زعيمها وعلاً ضخماً. في مزاج متوحش، كان - وهو يقف مرتفعاً ستة أقدام عن الأرض - خصماً على قدر من الرهبة أكثر ما كان (بك) يرغب. إلى وراء وإلى أمام شمر الوعل قرنيه المتشابكين المتشعِّبين العظيمين،

المتفرعين إلى أربعة عشر فرعاً، يعانقان السبعة أقدام بأطرافهما. كانت عيناه الصغيرتان تتحرّقان بضياء حاقد ومرير، في حين كان يخور مسعوراً لمرأى (بك).

من جانب الوعل، أمام الساق تماماً كان يبرز طرف سهم مريش، الأمر الذي كان مبعث توحشه. ومساقاً بتلك الغريزة التي كانت تأتي من أيام الصيد القديمة للعالم الموغل في البداءة، انطلق (بك) ليعزل الوعل عن القطيع. لم تكن تلك مهمة هينة، كان ينبح ويرقص في كل مكان أمام الثور، خارج مدى القرون العظيمة والحوافر العريضة الرهيبة التي كان بمقدورها أن تهرسه فتطرد منه الروح بضربة واحدة. وإذ كان الوعل عاجزاً عن إدارة ظهره للخطر ذي الأنياب والمضي لسبيله، فإنه كان ينساق إلى نوبات عارمة من الغضب. في مثل تلك اللحظات كان يهاجم (بك)، الذي كان يتراجع بحذق محترف، جاعلاً إياه يطمع فيه بعجز مصطنع عن الفرار، ولكن عندما جرى عزله بتلك الصورة عن زملائه، انبرى وعلان أو ثلاثة من الأصغر سناً يهاجمون (بك) فيمكنون الوعل الجريح من الانخراط ثانية في القطيع.

ثمة صبر للوحش – لجوج، عديم التعب، مصر كالحياة ذاتها – هو الذي يبقى العنكبوت عديم الحراك، ساعات لا تنتهي، في نسيجه، والحية في طياتها، والفهد في مكمنه، هذا الصبر يخص الحياة عندما تصطاد قوت حياتها، وكان يخص (بك) وهو يتشبث بأطراف القطيع، معيقاً سيره، مزعجاً الفحول الفتية، مقلقاً الإناث ذوات العجول، وموصلاً الوعل الجريح إلى الجنون بغضب يائس. استمر ذلك طوال نصف نهار، ضاعف (بك) نفسه، مهاجماً من كل الجوانب، مطوقاً القطيع بدوامة من التهديد، مقتطعاً ضحيته بسرعة تعادل سرعة إمكان عودة الضحية لأقرانها، مستنفداً صبر المخلوقات التي يريد الافتراس من بينها، ذلك الصبر الذي هو أقل من صبر المخلوقات التي تفترس.

فيما اضمحل النهار وراحت الشمس تسقط في فراشها بالشمال

الغربي (كانت الظلمة قد عادت، وقد صار طول ليالي الخريف ست ساعات)، راح العجول الفتيان يعيدون توجيه خطاهم بتحفظ يزداد باطراد لمعونة قائدهم المحاصر. كان الشتاء الهابط يدفعهم دفعاً إلى المنحدرات، كان يبدو أنه لم يكن بمقدروهم أن ينفضوا هذا المخلوق الذي لا يتعب، والذي كان يبقيهم متأخرين، عنهم. وإضافة إلى ذلك، فلم تكن حياة القطيع، أو الوعول الأحداث، هي المعرضة للخطر. كانت حياة عضو واحد مطلوبة، وهي مصلحة أبعد من أرواحهم، في النهاية كانوا راضين بأن يسددوا الضريبة.

فيما هبطت العتمة وقف الوعل ناكس الرأس، مراقباً أقرانه – الإناث اللائي عرفهن، العجول الذين كان لهم أباً، والوعول الذين كان عليهم سيداً – فيما كانوا يترنحون في خطو سريع عبر الضوء المتلاشي. لم يكن بمقدوره أن يتبعهم، لأن أمام أنفه كان يتقافز الرعب ذو الأنياب عديم الرحمة الذي ما كان ليعتقه. كان يزن ثلاثمائة وزن[١٣] فوق نصف طن، وكان قد عاش حياة قوية طويلة، مليئة بالعراك والنضال، ها هو أخيراً يواجه الموت على أسنان مخلوق لا يتجاوز رأسه ارتفاع ركبتيه المعقدتين العظيمتين.

ومنذ ذلك الوقت فلاحقاً، لم يترك (بك) فريسته قط، لم يعطها استراحة ثانية واحدة، لم يسمح لها قط أن تقطع أوراق الأشجار أو تجتث صغار الشجيرات لتأكلها. كما أنه لم يعط الوعل الجريح فرصة إرواء عطشه المحرق في الجداول النحيلة المقطرة التي عبراها. غالباً ما كان ينفجر، في يأس، في امتدادات هروب طويلة. وفي مثل هذه الأوقات كان (بك) لا يحاول منعه، وإنما ينط على هون في أعقابه، راضياً بالطريقة التي كان يجري بها اللعب، متمدداً عندما يقف الوعل ساكناً، مهاجماً إياه بضراوة عندما يجاهد لكي يأكل أو يشرب.

---

(١٣) المائة وزن وحدة وزن انكليزية، تعادل في أميركا مائة رطل. فيكون وزن الوعل، على هذا، ٥٠٦ كيلوغراماً تقريباً.

كان الرأس العظيم ينحط أكثر فأكثر تحت وطأة شجرة قرونه، وازدادت الخطوات المترنحة ضعفاً. صار يضطر إلى الوقوف فترات طويلة، أنفه نحو الأرض وأذناه المهمومتان تسقطان بارتخاء، فوجد (بك) مزيداً من الوقت كي يجد الماء لنفسه ويرتاح. وفي مثل هذه اللحظات، كان يلهث وقد تدلى لسانه الأحمر وثبتت عيناه على الوعل الكبير، كان يبدو لـ (بك) أن تغيرا كان يطرأ على وجه الأمور. كان بمقدوره أن يحس نأمة جديدة في الأرض. فيما كان الوعل يتهاوى نحو الأرض، كانت أنواع أخرى من الحياة تدخل. كانت الغابة والجدول والهواء تبدو مفعمة بوجودها. كانت أخبارها محمولة نحوه، لا بالنظر، أو الصوت، أو الرائحة، ولكن بمعنى آخر، وأدق. لم يسمع شيئاً، لم ير شيئاً، ومع ذلك فقد كان يدري أن الأرض كانت مختلفة على نحو ما، وأن أشياء غريبة كانت تجري وتستقر خلالها، فعزم على أن يتحرى بعد أن يكون قد انتهى من العمل الذي بين يديه.

وأخيراً، عند نهاية اليوم الرابع، طرح الوعل العظيم أرضاً. وطوال يوم وليلة بقي إلى جانب القتيل، يأكل وينام، بأقساط متساوية. ثم – إذ ارتاح وانتعش فصار قوياً – أدار وجهه نحو المخيم ونحو جون ثورنتون. انطلق في نطات هينة طويلة، واستمر – ساعة بعد ساعة – دون أن يضل الطريق المتشعب المتشابك، متجهاً باستقامة نحو موطنه عبر بلاد غريبة بثقة في الاتجاه تجعل الإنسان وابرته المغناطيسية يحسان العار والخيبة.

وفيما استمر على ذلك ازداد وعياً بالنأمة الجديدة في الأرض. كانت ثمة حياة واسعة فيها تختلف عن الحياة التي كانت هنا طوال الصيف. لم تعد هذه الحقيقة تحمل إليه بطريقة غامضة معقدة. كانت الطيور تتحدث بها، والسناجب تضح حولها، وحتى النسمة تهمس بها. وبضع مرات توقف واستنشق هواء الصبح الطازج في شهقات عظيمات، قارئاً رسالة كانت تجعله ينط بسرعة أعظم. كان مضطهداً بشعور من بلية تقع، إن لم تكن بلية وقعت سلفاً، وفيما عبر

آخر مسقط ماء وهبط منحدراً إلى الوادي مقابل المخيم، راح يتحرك بحذر أعظم.

على بعد ثلاثة أميال صادف نيسماً جديداً جعل شعر رقبته يتموج ويقف. كان النسيم يؤدي باستقامة إلى المخيم وجون ثورنتون. أسرع (بك)، بخفة وانسيابية، وكل عصب من أعصابه مجهد ومتوتر، يقظاً للتفاصيل الزائدة التي كانت تروي الحكاية - كلها فيما عدا النهاية. أعطاه أنفه وصفاً متنوعاً لطريق الحياة الذي كان يمتد في أعقابه. انتبه لهدأة الغابة الحبلى. كانت حياة الطير قد انتقلت. كانت السناجب تختبئ. لم ير غير واحد فقط - واحد رمادي لماع، ملتصق بجذع ميت رمادي بحيث كان يبدو وكأنه جزء منه، نتوء خشبي على الخشب ذاته.

وعلى بعد مائة ياردة، عثر (بك) على أحد كلاب الزلاجات التي جلبها ثورنتون في داوسون كان هذا الكلب يتلوى في نزاع الموت، مباشرة على النسيم، تجاوزه (بك) دون توقف. ومن المخيم جاء الصدى الخابي لعدة أصوات، يرتفع ويهبط في إيقاع غنائي. وإذ تقدم إلى أمام نحو حافة الأرض المنبسطة. وجد هانس، مستلقياً على وجهه، مراشاً بالسهام حتى بدا كالقنفذ. وفي نفس اللحظة تطلع (بك) إلى حيث كان بيت الجذوع الجميل فرأى ما جعل شعره يقفز مستقيماً على رقبته وكتفيه. اكتسحته موجة من الغضب المتملك. لم يعرف أنه هز، وكلنه هر بضراوة رهيبة. وللمرة الأخيرة في حياته سمح للعاطفة أن تكتسح الجرأة والتعقل، وبسبب من حبه العظيم لجون ثورنتون فقد عقله.

كان هنود الـ (ييهات) يرقصون حول أنقاض بيت الجذوع حين سمعوا زئيراً مخيفاً ورأوا - مندفعاً صوبهم - حيواناً لم يشاهدوا شبيهاً له من قبل قط. كان (بك)، إعصاراً حياً من الغضب، يطوي نفسه فوقهم في سعار لكي يدمر. قفز على أول رجل (كان زعيم الييهات)، شاقاً حنجرته فاتحاً إياها باتساع حتى انفجرت الحنجرة الممزقة نافورة من الدم. لم يتوقف ليزعج الضحية، بل مزق وهو

يمر، بالقفزة التالية حنجرة رجل ثان. لم يكن هناك ما يمسكه. راح يعيث في وسطهم تماماً، ممزقاً، ناهشاً، مدمراً، في حركة مستمرة ومرعبة كانت تتحدى السهام التي صبوها عليه، وفي الحقيقة، كانت حركاته لا معقولية السرعة، وكان الهنود من إحكام التشابك فيما بينهم، بحيث راح أحدهم يصيب الآخر بالسهام. وإذ أطلق أحد الصيادين الشبان رمحاً نحو (بك) في الهواء، فقد انغرز في صدر صياد آخر بقوة جعلت سنانه ينكسر عند جلد الظهر فيقف هناك ناتئاً. ثم تملك الييهات فزع، ففروا في رعب إلى الغابة، معلنين – وهم يفرون – حلول الروح الشريرة.

وحقاً كان (بك) صورة ابليس، مسعوراً في أعقابهم وجاراً إياهم إلى أدني كالغزلان فيما كانوا يتراكضون عبر الأشجار. كان يوماً مصيرياً بالنسبة لليبهات. تبعثروا فوق رقعة واسعة متباعدة عن الأرض، ولم يتمكن بقية الناجين، إلا بعد أسبوع، أن يتجمعوا معاً في واد أسفل ويعدوا خسائرهم. أما فيما يتعلق بـ (بك)، فحين تعب من المطاردة عاد إلى المخيم المهجور. وجد بيت حيث كان مقتولاً في بطانياته في لحظة المفاجأة الأولى. وكان صراع ثورنتون اليائس طري الكتابة فوق الأرض، وقد شم (بك) كل تفصيل من تفاصيله انحداراً إلى حافة حوض عميق. عند الحافة، كانت تتمدد سكيت، رأسها وقائمتاها الأماميتان في الماء، مخلصة حتى النهاية. أما الحوض نفسه، الموحل وذو اللون الشائه بفعل الصناديق المبللة، فقد كان يغطي بنجاح ما كان يضم، ولقد كان يضم جون ثورنتون، لأن (بك) اقتفى أثره إلى داخل الماء، الذي لم يقد أي أثر منه إلى الخارج.

راح (بك) يفكر طوال النهار عند الحوض أو يتجول دون ارتياح حول المخيم. كان يعرف الموت، بوصفه توقف حركة أو ابتعاداً عن حيوات الأحياء واختفاء منها، شبيهاً نوعاً ما بالجوع، ولكن فراغاً كان يؤلم ويؤلم، ولم يكن بمقدوره الطعام أن يشبعه. وأحياناً، عندما كان يشعر بفخر عظيم في ذاته – فخر أعظم من أي

فخر سبق له أن جربه. لقد قتل ناساً، وتلك أشرف الألعاب، وقد قتل في مواجهة قانون الهراوة والأنياب. تشمم الجثث بفضول: لقد ماتوا بيسر بالغ. كان قتل كلب هوسكي أصعب من قتلهم. لم يكونوا أنداداً قط، من دون نبالهم ورماحهم وهراواتهم. ومنذئذ لن يعود يخشاهم ما لم يكونوا يحملون بأيديهم نبالهم ورماحهم وهراواتهم.

حل الليل، وارتفع بدر فوق الأشجار في السماء، منيراً الأرض حتى امتدت سابحة في نهار شبحي. وبحلول الليل، الباعث على التفكير والمقيم للحداد عند الحوض، تنبه (بك) حياً لحركة الحياة الجديدة في الغابة تختلف عن تلك التي أحدثها اليبهات. وقف، مصغياً متشمماً. من البعيد حمل الهواء همهمات خابية رفيعة، وتبعها كورس من الهمهمات الحادة المشابهة. وفيما مرت اللحظات اقتربت الهمهمات وارتفعت. ومرة أخرى عرفها (بك) بوصفها أشياء تسمع في العالم الآخر الذي كان يلح في ذاكرته. وسار نحو مركز الأرض الفضاء وراح يصغي. كان ذلك هو النداء، النداء ذو الأجراس المتعددة، يرن مغرياً أكثر ودافعاً أكثر من السابق، وكما لم يكن قط في السابق، كان الآن مستعداً للاستجابة. كان جون ثورنتون قد مات. كان آخر رباط قد انفصم. لم يعد الإنسان، ولا متطلبات الإنسان، يربطه.

كان قطيع الذئاب – وهو يصطاد لحم معيشته، كما كان اليبهات يصطادونه، في أعقاب الوعول المهاجرة – قد عبر أخيراً من أرض الجداول والخشب واستباح وادي (بك). إلى داخل الأرض المنبسطة حيث كان ضوء القمر ينهمر انصبوا في فيض فضي، وفي وسط هذه الأرض كان يقف (بك)، دون حراك مثل تمثال، منتظراً مجيئهم. كانوا خائفين، وكان يقف بسكون بالغ وبكبر تام، وحلت لحظة سكون حتى قفز أجرؤها باستقامة نحوه. ومثل ومض، ضربه (بك)، محطماً العنق. ثم وقف، من دون حركة، كالسابق، والذئب المضروب يتلوى معذباً وراءه. حاولها ثلاثة آخرون في تتابع سريع، وانسحبوا واحداً بعد الآخر، يصبون الدم من حناجر

أو أكتاف منهوشة.

كان هذا كافياً لبعثرة القطيع كله إلى أمام، في هرج ومرج، متزاحماً أفراده فيما بينهم، محجوزاً ومرتبكاً في لهفته على جر الفريسة إلى أدنى. وقد أوقفت سرعة (بك) ومهارته الساحرتين، أوقفتاه في وضع جيد. كان وهو يستقر مرتكزاً على ساقيه الخلفيتين، زاعقاً وجارحاً في كل مكان، في آن معاً، عارضاً مقدمة كان واضحاً أنها غير مكسورة رغم الخفة التي كان يدوم بها ويحتمي من جانب إلى آخر. ولكن، من أجل منعها من الوصول إلى ما وراءه، كان مضطراً إلى التراجع، هابطاً الحوض ليعبره، فإلى حوض الجدول، حتى انساق صاعداً ضفة الحصى العالية. ظل يعمل على طول زاوية يمنى في الضفة كان الناس قد أحدثوها في مجرى التنقيب، وفي هذه الزاوية وصل إلى «الخليج» محمياً من ثلاثة جوانب وليس أمامه ما يفعله غير المواجهة من أمام.

ولقد أدى المواجهة بإحكام تام، بحيث أنه عند انتهاء نصف ساعة انسحبت الذئاب مدحورة. كانت ألسن الجميع مدلاة ومرولة، والأنياب البيضاء تلمع بقسوة ساطعة في ضوء القمر. كان بعضها يتمدد ورؤوسها مرتفعة وآذانها منتصبة إلى أمام، وبعضها يقف على الأقدام، يراقبه. ومع ذلك، كان آخرون يلعقون الماء من الحوض. تقدم ذئب، طويل ونحيل ورمادي، بحذر، بطريقة ودية، فميز (بك) فيه الشقيق الوحشي الذي سبق له أن جرى معه ليلة ويوماً. كان يهمهم بنعومة: وفيما راح (بك) يهمهم، تلامس أنفاهما.

ثم تقدم ذئب عجوز، هزيل وكثير الجروح بفعل المعارك. دور (بك) شفتيه في تكويرة بارزة، ولكنه شم وإياه الأنوف. عندئذ، جلس الذئب العجوز، وأشار بأنفه نحو القمر، وأطلق عواء الذئب الطويل. جلس الذئب العجوز، وأشار بأنفه نحو القمر، وأطلق عواء الذئب الطويل. جلس الآخرون وعووا. والآن، جاء النداء إلى (بك) في نغمات لا تخطئ. جلس هو الآخر وراح يعوي. وإذ انتهى ذلك، خرج من زاويته فتزاحم القطيع حوله، متشممين في

حالة نصف ودية، نصف وحشية، ورفع القادة همهمة القطيع وقفزوا مبتعدين إلى الغابة. استدار الذئاب على أعقابهم، مهمهمين في تناغمٍ. وركض (بك) معهم، جنباً إلى جنب مع الشقيق الوحشي، مهمهماً فيما هو يركض.

وهنا يمكن أن تنتهي، تماماً، قصة (بك). لم تكن قد مرت سنوات عديدة عندما لاحظ اليبهات تبدلاً في سلالة ذئاب الغابات، إذ شوهد بعضها يحمل بقعة بنية على الرأس والبوز، ولطخة من البياض تنصف صدورها. ولكن الأكثر مدعاة للانتباه كان ما يذكره اليبهات عن كلب شبح يجري على رأس القطيع. إنهم يخشون هذا الكلب الشبح لأنه كانت لديه جرأة أكثر من بقية القطيع، سارقاً من مخيماتهم في الشتاءات القاسية، مجرداً فخاخهم، سالخاً كلابهم ومضللاً أشجع صياديهم.

كلا، بل تزداد القصة سوءاً. كان ثمة صيادون لا يعودون إلى المخيم، وصيادون وجدهم أبناء عشيرتهم مشقوقي الحناجر بقسوة، تعلوهم علامات ذئب في الثلج تبدو أعظم من أي علامات ذئب أخرى. وفي كل خريف، عندما كان اليبهات يقتفون حركة الوعل، كان ثمة واد معين لا يدخلونه قط. وكان ثمة نساء يشعرن بالحزن عندما تنتشر الكلمة فوق النار عن كيفية مجيء الروح الشريرة لاختيار ذلك الوادي بوصفه مكاناً للمقام.

وفي مواسم الصيف. كان ثمة زائر وحيد لذلك الوادي، لم يكن يعرفه اليبهات. إنه ذئب عظيم ملفوف بأبهة مثل كل الذئاب الأخرى، ويختلف عنها بنفس الوقت. إنه يعبر وحيداً من أرض الخشب الباسمة ويهبط إلى فضاء مكشوف بين الأشجار. هنا يجري جدول أصغر من أكياس جلود الوعل المتعفنة ويغور في الأرض، والأعشاب الطويلة تنمو فيه والطحالب الخضر تغطيه وتخفي صفرته عن الشمس. هنا يتساءل عن الوقت، عاوياً مرة واحدة، طويلاً وبحزن، قبل أن يرحل.

ولكنه ليس واحيداً دائماً. فعندما تأتي ليالي الشتاء الطويلة وتتبع

الذئاب لحمها إلى الوديان الدنيا، ربما يشاهد جارياً على رأس القطيع خلال ضوء القمر الشاحب أو ريح الشمال الباهتة، قافزاً كالعملاق فوق زملائه، وحنجرته العظيمة نحو الأسفل، فيما هو يغني أغنية من العالم الفتي، هي أغنية القطيع.